مفهوم الانسانية والعنصرية عند الجاحظ

د. محمد توفيق حسين

الموسوعة الصغيرة

١٥٤

١٩٨٥

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دائرة الشؤون الثقافية والنشر
بغداد / شارع الخلفاء

الكتاب القادم :

الفلسفة لكل الناس

د. عادل البكري

السعر : ٢٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

الموسوعة الصغيرة

تصدرها

دائرة الشؤون الثقافية والنشر

بغداد / الجمهورية العراقية

تقوم العنصرية على الزعم الخطأ بانقسام البشر في أصل خلقتهم الى اجناس مختلفة في درجة الانسانية . وان من حق جنس . او عنصر . معين أن يسيطر على أبناء جنس آخر . ويسخرهم لمصلحته . ويفرض عليهم قيمه وثقافته . ليزيل هويتهم الاصيلة بابعادهم عن جذورهم وقيمهم ومنابع ثقافتهم . والعنصرية : بهذا المفهوم . قديمة . سبقتها أمم وشعوب عديدة . ووضع لهم بعضهم عقائد ونظريات . ومنهم العبرانيون الذين لخصوا ذلك في عقيدتهم « شعب الله المختار » . ويمارس هذه العقيدة العنصرية اليوم الصهاينة بأبشع أشكالها قسوة واذلالا ضد العرب أهل فلسطين العربية الاصليين .

ويضاد مفهوم الانسانية مفهوم العنصرية • وأساسه ان لكل انسان ، بحكم انسانيته ، قيمة وكرامة ، وان لكل شعب وأمة قيمة وحقا في الحياة الكريمة . وان العلاقات بين الافراد والشعوب والامم يجب ان تقوم على اساس المساواة . والاحترام والتعاون . وتبادل المنافع ، بغض النظر عن الاصل والعنصر . واللون ، والقوة والضعف ، والمعتقد الديني . والمستوى الحضاري •

وقد واجهت الحضارة العربية الاسلامية ، التي انضوى تحت لوائها امم وشعوب وقبائل عديدة مختلفة في اصولها العرقية والدينية والحضارية . هذه المهمة . ووضعت لها الحل النظري الواضح الصريح ، على أساس ان الناس كلهم خلق الله ، خلقهم من أب واحد وأم واحدة ، فهم متساوون في الاصل ، وانما يفضل الواحد منهم الاخر بكفاءته وتقواه وعمله النافع للناس • وطبقت الحضارة العربية هذه الاسس النظرية

تطبيقا بلغ درجة عالية من انسانية التعامل بين الناس ، اذا أخذ بنظر الاعتبار ظروف وشروط الحياة في تلك العصور ، وضعف البشر عموما عن السمو الدائم الى ذرى المثل العليا •

وقد تناول الجاحظ . وهو من أعظم ممثلي هذه الحضارة العربية وابلغ المعبرين عنها ، موضوع الانسانية والعنصرية في معظم كتبه ورسائله ، وبحث في مختلف جوانبه ، من التمايز والتفاضل بين افراد المجتمع ، الى التفاضل بين الامم والشعوب • وبحث هذا الموضوع على فلسفة متكاملة في الانسان ، وبنهج علمي منطقي محدد ، وعلى أساس من نظرة اخلاقية مستمدة من هذه الفلسفة ، ومستخلصة بهذا المنهج • فكان من الضروري ان أقدم للبحث بخلاصة وجيزة عن فلسفته في الانسان ، ومنهجه الكلامي العلمي في

البحث • واعرض بعدها رأيه في العرب والامم الاخرى •

والجاحظ يعبر عن مفهوم الانسانية والعنصرية بغير الالفاظ التي تتداولها الان • فهو يؤدي معنى مفهوم العنصرية . او جانبا منه. بالفاظ مثل : العصبية . والتفاضل . والشعوبية ؛ وبخس حقوق قوم واعطاء قوم ما لا يستحقون . وتفضيل إنسان بتنقص اخر وغيرها • ويؤدي ما نفهمه من مفهوم الانسانية بالفاظ مثل : العدالة . والرحمة ؛ والعطف ؛ والحنان ، والاكرام ؛ وغيرها •

ويقوم منهج الجاحظ على قواعد علم المنطق وقواعد منهج العلم • فكان يجمع مقدماته من الاخبار الموثوقة . والمشاهدة والملاحظة العيانية ؛ ويمتحن كل ذلك بفحص الروايات والاخبار ونقدها . واعادة الملاحظة والمشاهدة ؛ والتجربة ؛ ما كان ذلك بامكانه .

وما طاوعه موضوع البحث • ولا يرتضي النتيجة الا بعد عرضها على مقاييس المنطق ، وقواعد العقل السليم • وكان يتبع سبيل الشك الفلسفي ويؤكد عليه • وكان يدرس الظاهرة ويبحث عن عللها واسبابها ليصل الى جذورها النفسية والاجتماعية والتاريخية والطبيعية •

والمنهج عند الجاحظ اكبر من اتقان للقياس ؛ والاحكام لقواعد العلم . فانما هو ؛ قبل كل شيء وفوق كل شيء . موقف اخلاقي اساسه الامانة ؛ والانصاف ، وتصفية النفس . قبل فحص موضوع البحث واصدار الحكم عليه . من كل ما الفته من آراء مسبقة •

وتقوم فلسفة الجاحظ في الانسان على اساس هو اهم مخلوق في العالم ، ويمتاز عن سائر الحيوان بالعقل . والمعرفة . والاستطاعة ؛ وحرية الاختيار • والحرية هي جوهر انسانية الانسان ؛ وتمثل سائر ما يعتبره الجاحظ من ميزات الانسان على الحيوان •

فهي تشترط الاستطاعة ، والاستطاعة تشترط المعرفة ، والمعرفة تشترط العقل •

واذا كان البشر كلهم من اصل واحد فكيف ، ولماذا ، انقسموا الى اجناس واعراق وامم وشعوب مختلفة في الصور والالوان ، واللغات ، والطبائع ، والعادات ، والفضائل ؟ ويقدم الجاحظ عدة عوامل لتعليل ذلك أهمها : الاستعداد الطبيعي . واثر البيئة الطبيعية والاجتماعية . والعقيدة واخصها العقيدة الدينية ، والعادات والتقاليد . ولا يهمل دور الحظ والمصادفة •

ويؤكد الجاحظ خاصة على العلاقة القائمة بين الانسان وبين البيئة الطبيعية والاجتماعية.ويتعمق في ذلك ويتوسع ، معتمدا على معرفته الموسوعية بتراث العرب والامم الاخرى ، وعلى مشاهداته الشخصية ، حتى كان بحق رائد الجغرافية البشرية في اللغة العربية ومن كبار روادها في الآداب العالمية • وهو يعني بالبيئة

الطبيعية : الارض وتربتها وماءها وهواءها وحرارتها وبرودتها وما فيها من نبات وحيوان • ويعني بالبيئة الاجتماعية : المنشأ والتربية والمهنة والصناعة والعادة والعقيدة ومالى ذلك من نظم وتقاليد في المجتمع •

وكان الجاحظ احد كبار المعبرين عن فكرة وحدة الامة وتماسك عناصرها واجناسها ، والحفاظ على اصالتها العربية • لان فكرة وحدة الامة كانت من صميم رسالة الاسلام . ولانها تنسجم مع فلسفته في الانسان ، ولانها كانت اساس فلسفة الخلافة في الحكم وعلى هذا كان الجاحظ في معظم ما ألف في مناقب الاقوام والقبائل والاسر وفضائل المدن يبحث عما يجمع ولا يفرق ، ويحاول الا يعطي قوما فوق ما يستحقون ، ولا يبخس قوما شيئا من حقهم • ولم يكن يقيس فضائل القوم بنقاوة العرق واصالة النسب ، ولم يهتم بذلك كثيرا • وكان ينظر الى اختلاط الاعراق نظرة عالم ، فيجد ان اختلاط الاجناس والاعراق يؤدي الى

ولادة نسل قوى واضخم . و احسن وامسح . من اصليه .

كان الجاحظ يبحث عن مناقب الاقوام فيسجلها . واذا ذكر ما كان يــراه هو . او ما يعتبره الجمهور . منقصة و مثلبة . فانــه كان يعللــه في اكثر الاحيان بظروفه الطبيعية والاجتماعية يخفف من الحكم عليه . وعلى هذا الاساس . وبهذه الطريقــة . بحث في مناقب العرب والترك والسودان وسائر اقوام الخلافة .

وكان الجاحظ يعتز بالعــرب ، ويفضــلهم على سائر الاقوام . لا بدافـــع العصبية ، وانما عن قناعــة سندها ما صح لديه من أدلة وشواهد وبراهين . وكان يرى ان فضائل العرب ومناقبهم وآدابهم وتاريخهم هي التي تقدمهم على من سواهم . ولم يكن الجاحظ هو الوحيد في تفضيل العرب على غيرهم . فمعظم الاقوام التي يتناولها بالبحث يحاولــون الانتســاب للعرب ،

ويتبارون في أظهار ولائهم للخلفاء العرب . وهم بهذا كانوا يصدرون عن شعور بفضـــل العرب واهميتهم وعلو شأنهم وانهم اصحاب الدولة والسيادة والدين .

وفي موقفه من الفرس والشعوبية والمجوسية ظل الجاحظ ملتزما بمنهجه العلمي الموضوعي ، محافظــا على شرطه في عدم الخروج من حد الحمية الى حــد العصبية فقد نظر الى الفرس . كما نظر الى غيرهم من الاقوام . بعين العالم الموضوعي ، ترى موضع الحمد فتسجله . وموضـــع العيب فتذكره . دون تحيف ولا تعصب . وهو لم يبدأ المعركة مـــع الشعوبية ، وانما كانوا هم الذيــن بدأوهــا ، بما الفوا من مطاعن في العرب ، وبما انكروا من أصالة الحضارة العربية ، وبما ارادوا من هدم كيان العرب . فتصدى الجاحظ لهــم دفاعا عن العرب . ولكنه حتى في معركته مع الشعوبية لم ينزلق الى العصبية والعنصرية وانما دفع مطاعــن الشعوبية في العرب بأظهار بطلانها وتهافتها ، ومخالفتها

للوقائع التاريخية الثابتة ، والتفسير الصحيح للعادات والتقاليد الاجتماعية . وفي معركته مع الشعوبية وضع الجاحظ مبدأً اجتماعيا انسانيا هاما في الحكم على عادات الامم والشعوب ، ينقض مبدأ العنصرية من أساسه . فقد رأى ان الحكم على عادة من العادات ، واسلوب من أساليب العيش ، في أي مجتمع وجيل ، يجب الا ينطلق من مبدأ مجرد مطلق ، وانما يجب ان يؤسس على ظروف المجتمع العينية ، وشروط الحياة الخاصة به . ويلخص الجاحظ مبدأه هذا بقوله : « أعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ... ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة ، وزي أهل كل لغة وعللهم ، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اجتلبوه ، ولم تكلفوه ، لاراحوا أنفسهم ، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم » .

وقد وقف الجاحظ من ديانات الفرس القديمة

موقف الناقد المتشدد ، والحسيب المترصد ، لان الدعوة الى بعث هذه الديانات ، واخراج كتبها من ظلمات مخابئها ونشرها بين الناس ، تخفي تحتها ارادة هدم الدولة العربية بهدم الاسلام الذي هو باعثها واساسها . ولان هذه الديانات تخالف نهج العقل السليم وقواعد المنطق ، ولانها كانت وثيقة الصلة بالشعوبية .

وخلاصة رأي الجاحظ في مسألة الانسانية والعنصرية : ان أقوام البشر جميعا كرام ، قد تفرد كل قوم بناحية ، وتميزوا بفضيلة او بفن او صناعة . وهم ، على فضل جميعهم ، يتفاضلون فيما بينهم : افرادا وجماعات وامما . فالتفاضل شيء قائم في حياة البشر ، مشهود في الطبيعة . يقول الجاحظ : « وقد تختلف الجواهر وكلها كريم ، وتتفاضل العتاق وكلها جواد » ويقول : « ولكلٍّ نصيب من النقص ومقدار من الذنوب وأنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء . فاما الاشتمال على جميع المحاسن ،

والسلامة من جميع المساوىء دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها . فهذا ما لا يعرف . » وكان معياره الذي يقيس به قيمة الانسان هو مقدار ما يقدم من عمل نافع للناس . ومقدار ما يحسن من هذا العمل : « قيمة الانسان ما يحسن » . فلسفة الجاحظ انسانية تحترم الانسان لانه انسان . وترفض كل تمييز على اساس العرق والعنصر واللون. ولهذا كله كان الجاحظ شيخ الادب ولسان العرب .

١ ــ المقدمة

تقوم العنصرية ، أو العرقية ،على أساس من الزعم الخطأ بانقسام البشر في أصل خلقتهم وطبيعتهم ، الى عناصر واعراق واجناس وامم وشعوب ، مختلفة في درجة الانسانية ، متفاوتة في القيمة والكرامة . وتزعم النظرية العنصرية ان من حق عنصر معين ، بحكم تفوقه الطبيعي ، أن يسيطر على أبناء عنصر آخر ، ويسخرهم لمصلحته ، ويعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية ، أو أدنى ، فيفرض عليهم قيمه وثقافته ، ليزيل هويتهم الاصيلة بابعادهم عن جذورهم وقيمهم وثقافتهم .

ومصطلح العنصرية ، في مجمل العبارة ، يعني حق قوم في الاستعلاء على قوم ، وسيطرة شعب على شعب ، واذلال فئة متغلبة لفئة مستضعفة مقهورة • وقد بنيت على أساس العنصرية نظريات ، وشرعت قوانين وأنظمة ، وسادت ممارسات في المجتمعات التي تأخذ بها • والعنصرية ، بهذا المعنى ، قديمة ، طبقتها عمليا أمم وشعوب وقبائل عديدة منذ أقدم عصور البشرية ، ووضع لها بعضهم الاسس النظرية والعقائدية • ومن أقدم من مارس التمييز العنصري عمليا ، ووضع له الصيغ النظريـة والعقائديـة المحـددة ، العبرانيون القدماء ، ولخصوا ذلك بعقيدتهم في أنهم « شعب الله المختار » • ويمارس الصهاينة هذه العقيدة في التمييز العنصري ، بأبشع أشكالها قسوة واذلالا ضد العرب أهل فلسطين العربية الاصليين • وقد توسع مصطلح « التمييز » فأخذ يعني كل أشكال التمييز ، القانونية والاجتماعية ، تجاه الاقليات الدينية ، والعمال الاجانب،

والنساء ، وبعض الطوائف الاجتماعية • وسيقتصر بحثنا على التمييز العرقي فقط •

ويضاد مفهوم الانسانية مفهوم العنصرية • واساسه أن لكل انسان ، بحكم انسانيته ، قيمة وكرامة ، وان لكل شعب وامة قيمة وحقا في الحياة الكريمة • وان العلاقات بين الافراد والشعوب والامم يجب أن تقوم على اساس المساواة ، والاحترام ، والتعاون وتبادل المنافع ، بغض النظر عن الاصل والعنصر ، واللون ، والقوة والضعف ، والقلة والكثرة ، والمعتقد الديني ، والمستوى الحضاري •

وقد واجهت الحضارة العربية الاسلامية ، التي انضوى تحت لوائها أمم وشعوب وقبائل عديدة مختلفة في أصولها العرقية والدينية والحضارية ، هذه المهمة مواجهة واضحة صريحة ، ووضعت لها الحل النظري الواضح الصريح ، على اساس أن الناس كلهم

خلق اللـه ، خلقهم من أب واحد وأم واحدة ، فهم متساوون في الاصل ، وانما يفضل الواحد منهم الآخر بكفاءته وتقواه ، وطاعته ، وعمله النافع للناس • وقد طبق المجتمع العربي الاسلامي ، في عهود نهوضه وازدهاره ، هذه الاسس العقائدية النظرية تطبيقا بلغ درجة عالية من انسانية التعامل بين الناس ، اذ أخذ بنظر الاعتبار ظروف وشروط الحياة في تلك العصور ، وضعف البشر عموما عن السمو الدائم الى ذرى المثل العليا •

ومن أعظم ممثلي الحضارة العربية الاسلامية ، وأبلغ المعبرين عن ثقافتها الغنية في أخصب عهودها حيوية وعطاء ، أبو عثمان عمرو بن محبوب الجاحظ • وموضوع الانسانية والعنصرية من الموضوعات التي تناولها ، وأشبعها بحثا ، وعاد اليها مرة بعد مرة • وقد نثر آراءه في الموضوع في معظم كتبه ورسائله ، ومنها : الحيوان ، والبيان والتبيين ، والعرب والعجم ،

والعرب والموالي ، والصرحاء والهجناء ، والبلدان ، ومناقب الترك ، وفضل الفرس ، ومفاخر السودان ، والقحطانية ، والعدنانية ، والفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وفرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وغيرها •

تناول الجاحظ هذا الموضوع من مختلف جوانبه ، من التمايز والتفاضل بين افراد المجتمع ، الى التفاضل بين الامم والشعوب والقبائل ، وفسر كل جانب ، وعلل كل ظاهرة ، وكشف عن الاسس التي تقدم عليها فكرة التمايز والتفاضل • وتناول الجاحظ الموضوع على أساس من فلسفة متكاملة في الانسان ، وبمنهج كلامي علمي محدد وعلى أساس من نظرة أخلاقية مستمدة من هذه الفلسفة ، ومستخلصة بهذا المنهج • ولهذا كان من الضروري أن أقدم للبحث بخلاصة وجيزة عن فلسفة الجاحظ في الانسان ، ومنهجه في البحث • واعرض بعدها لرأيه في العرب والامم الاخرى ، معتمدا ، في المقام الاول ، على

آرائه الجدية الشخصية الصـريحة لا على ما يذكره من آراء الاخرين وحججهم وأدلتهم في جدلهم ، الا في حالة اقراره لهذه الآراء صراحة ، أو حين يكون لهذه الآراء صراحة ، أو حـين يكون لهـذه الاراء فائدة في اثارة جانب من الموضوع •

وقد عبر الجاحظ عن الانسانية ، والمسـاواة ، والعنصريـة ، والتمييز العنصري والعرقي ، بألفاظ خاصة غير هذه الالفاظ التي تتداولهـا الان • وهو يستعمل لاقسام الناس الفاظا عديدة كالجيل، والجنس، والقوم . والامة ، والشعب ، والقبيلة ، والصـنف ، والعرق ، والعوام والسفلة ، وأوساط الناس ، والجلة والعلية وغيرها • ويـؤدي معنى العنصرية ، أو جانبا منها ، بالفاظ مثل : العصبية ، والتفاضل ، والشعوبية، والذلة والصغارة ، والتفضيل والتأخير ، والوصول الى تفضيل انسان بتنقص آخر ، وبخس حقوق قوم واعطاء قوم فوق ما يستحقون ، والخروج من حـد

الحمية الى حد العصبية ، وغيرها • ويؤدي ما نفهمه من لفظة الانسانية بألفاظ مثل : الرحمـة ، والمحبـة ، والعدالة ، والعطف ، والحنان ، والتشريف والتعظيم ، ولطف المنزلة وغيرهـا • وضدها قلـة الرحمـة ، والقسوة ، والكيد ، والعداوة ، وفساد القلب • وغير ذلك من الالفاظ والمصطلحات •

٢ ـ منهج الجاحظ

الجاحظ متكلم معتزلي ، أتقن منهج علم الكلام ، في المنطق الجدلي ، وضبط حدوده ، وأحاط بدقائقه ، وراض تفكيره عليه ، وطبقه في كل ما فكر وكتب ، حتى لقد أصبح هذا المنهج من طبيعة أسلوبه جوهرا ومظهرا ، وحتى أصبح هو جدليا عظيما ان لم أقل أعظم منطقي جدلي في اللغة العربية • ويقوم هذا المنهج ، في الاساس ، على قواعد علم المنطق • والمنطق قديم نشأ في حضن حضارات الوطن العربي القديمة ، ونماه اليونانيون

في فلسفتهم وحوارهم ، وصاغ قواعده العامة أرسطوطاليس •

ومن قديم الزمان أفتتن الناس بالمنطق ، فاستخدمه الفلاسفة والمفكرون واستخدمته الملل والنحل المختلفة منهجا يوضح عقائدها ، ويثبت صحتها ، ويدفع حجج أعدائها وخصومها • ولعل المنطق هو أهم ما ورثه العرب والمسلمون من تراث يونان الفلسفي • فلقد اختلفوا في الفكر الرئيسة من الفلسفة اليونانية ، فقبل جملتها بعضهم ، وارتضى بعضها فريق منهم ، ورفض معضمها جمهور المسلمين • ولم يحظ بقبولهم جميعا الا المنطق • وعندما رد الغزالي فلسفة المتفلسفين ، ونقض قواعدها ، وكشف عن تهافتها ، كان سلاحه منطق الفلاسفة والمتكلمين •

وكان الجاحظ عظيم الافتتان بالمنطق ، دائم اللهج به ، وافر الحمد لاصحابه ، وهو عندما يشير الى

أرسطوطاليس يقول : قال صاحب المنطق • والتذكير بمنهج الجاحظ ، في مطلع هذا البحث ، ضروري لفهم موقفه من الانسانية والعنصرية ، ولفهم كل مواقفه الفكرية أيضا • لان صحة كل عقيدة وكل فكرة وكل موقف انما تقوم ، في رأيه ، على تماسك منطقها الداخلي الذاتي ، ومطابقتها لاحكام العقل السليم • ولكن لو كان الجاحظ قد اقتصر على منهج المتكلمين ، واكتفى بمنطق الفلاسفة ، لما زاد عن أن يكون متكلما لامعا بين جمهور المتكلمين ، وفيلسوفا بارزا بين المتفلسفين وانما كان الجاحظ هو الجاحظ لانه جمع الى اتقان منطق الفلاسفة والمتكلمين منهج العلماء ، فكان متكلما منطقيا ، وكان عالما ، ناقدا ، مجربا ، يجمع مقدماته من الاخبار الموثقة ، والمشاهدة والملاحظة العيانية ، ويمتحن كل ذلك بفحص الروايات والاخبار ونقدها ، واعادة الملاحظة والمشاهدة ، والتجربة ، ماكان ذلك بامكانه ، وما طاوعه موضوع البحث ، ثم لايرتضي

النتيجة الا بعد عرضها على مقاييس المنطق ، وقواعد العقل السليم • ومن أسس منهجه الفريدة المتميزة أنه لم يكتف بالبدء بمسلمات مقدرة ، يستنتج منها نتائج تبدو صحيحة بمعايير قواعد المنطق الصوري ، وانما كان يتبع سبيل الشك الفلسفي ويؤكد عليه ، وكان يدرس الظاهرة ويبحث عن عللها وأسبابها ليصل الى جذورها النفسية والاجتماعية والتاريخية والطبيعية ، فيكشف عنها ويجلوها ويبينها • وهو يؤكد على الغرائز الطبيعية ، ويبحث في العادات الاجتماعية وأثرها في أفكار الناس وسلوكهم • ويرى أن أساليب التعبير عن الغرائز ، وأنماط السلوك في اشباع الشهوات ، عادة تختلف من بلد الى آخر ، ومن مجتمع الى مجتمع • ولقد بلغ من شدة أهتمامه بأثر العادة على تفكير الناس وسلوكهم أن أعتبرها : « توأم الطبيعة » يقول الجاحظ في أهمية المعاينة والمشاهدة : «وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استنباطا ، ولم أر من

يعاند الحق اذا كانت المعرفة به عيانا . »[1] ولكنه يوجب ، على شدة اهتمامه بالمعاينة فحص ما تقدمه الحواس الى الذهن بمعايير المنطق ، وقواعد العقل السليم . ويقول : « ولعمري ان العيون لتخطيء ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الاعضاء ، وعيارا على الحواس . »[2] ويقول أيضا : « فلا تذهب الى ما تريك العين ، وأذهب الى ما يريك العقل ... وللامور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول . والعقل هو الحجة . »[3]

ستظهر جوانب من منهج الجاحظ في ثنايا البحث ، وأكتفي هنا بعرض بعض عباراته هو في توضيح أسس هذا المنهج . يقول الجاحظ عن طريقته في جمعه مادة أبحاثه ، وأسلوبه في التأكد من صحتها : « ولم نذكر ، بحمد الله تعالى ، شيئا من هذه الغرائب ، وطرفة من هذه الطرائف ، الا ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو

حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ومن قد أكثر قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الاسفار وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى بالهضاب ، ودخل في الغياض ، ومشى في بطون الاودية ... ونحن ، حفظك الله تعالى ، اذا استنطقنا الشاهد ، وأحلنا على المثل ، فالخصومة حينئذ انما هي بينهم وبينها ، اذ كنا نحن لم نستشهد الا بما ذكرنا . وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا . الا ان يكون شيء يثبت بالقياس ، أو يبطل بالقياس ، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه ، ولتثبيته واظهار حجته . »[4]

ويقول في ضرورة الشك للحصول على اليقين الذي يقره العقل ، وتطمئن اليه النفس : « وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك به تعلما . فلو لم يكن في ذلك الا تعرف

التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليـه • ثم أعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا ان اليقين طبقات في القوة والضعف •••• والعوام أقل شكوكا من الخواص ، لانهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب ، ولا يرتابون بأنفسهم • فليس عندهم الا الاقدام على التصديق المجرد ، أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات الشك ، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك ، وعلى مقادير الاغلب • »

والمنهج عند الجاحظ اكبر من اتقان للقياس ، واحكام لقواعد العلم ، فانما هو ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ، موقف اخلاقي أساسه الامانة ، والانصاف ، وتصفية النفس ، قبل فحص موضوع البحث واصدار الحكم عليه ، من كل ما ألفته من آراء سابقة ومن عقائد وعادات في النظر • وعلى الباحث أن يتأنى ويتحفظ في قبول الآراء التي تسبق الى قلبه قبل

غيرها ، فعسى أن يكون قبوله لها بسبب موافقتها لاهوائه ومصالحه ومنافعه ، لا لما فيها من الحق ، ولا لكونها صحيحة في ذاتها • يقول الجاحظ ، في عبارة صغيرة هي جماع رأيه في منهج البحث والاخلاق وفي موقفه من موضوع التفاضل بين الافراد والامم ، : « وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بديا الى طبيعة ، ثم الى معرفة ، ثم الى انصاف • وأول ما ينبغي أن يتبدىء به صاحب أمره الا يعطي نفسه فوق حقها ، والا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفّظ من شيئين ، فان نجاته لا تتم الا بالتحفظ منهما : أحدهما تهمة الإلف ، والاخر تهمة السابق الى القلب • »(٦)

وينقد الجاحظ عادة الاسراع بالقبول والاقرار ، أو التكذيب والانكار ، بدون فحص ولا روية ، ويبين قواعد التثبت من الاخبار ، وقبول الصحيح منها ، ورد ما يجب رفضه ورده : « ••• وبئس الشيء عادة الاقرار والقبول • والحق الذي أمر الله تعالى به ورغب فيه ،

وحث عليه ، ان تنكر من الخبر ضربين : أحدهما مـا تناقض واستحال ، والاخر ما امتنع في الطبيعة ، وخرج من طاقة الخلقة . فاذا خرج الخبر من هذيـن البابين ، وجرى عليه حكم الجواز ، فالتدبير في ذلك التثبت ، وأن يكون الحق في ذلك هو ضالتك ، والصدق هو بغيتك ، كائنا ما كان ، وقع منك بالموافقة ، أو وقع منك بالمكروه . »[٧]

ويوصي الجاحظ بمعرفة الطبيعة والعادة ، وماهو غريب شاذ ، وماهو عام لا شذوذ فيـه ، وما الممكن والمتنع وما العلة في ذلك ، وأن تدرس الظاهرة في حركتها وصيرورتها ، فيقول : « ... وينبغي لكـم بديا أن تعرضوا الطبيعة والعادة ، والطبيعة الغريبة من الطبيعة العامية ، والممكن من المتنع . وأن الممكن على ضربين : فمنه الذي لايزال يكون ، ومنه الذي لا يكاد يكون . وما علة الكثرة والقلة ، وتعرفوا أن المتنع أيضا على ضربين : فمنه ما يكون لعلة موضوعة

يجوز دفعها ، وما كان منـه لعلة لا يجوز دفعهـا . وفصل ما بين العلة التي لا يجوز دفعها وهي على كل حال علة ، وبين الامتناع الذي لا علة لـه الا عـين الشيء وجنسه . وينبغي أن تعرفوا فرق ما بين المحال والمتنع ، وما يستحيل كونه من الله عز وجل ، وما يستحيل كونـه من الخلـق . واذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوى ، فعنـد ذلك فتماطوا الانكار والاقرار ، والا فكونوا في سبيل المتعلم . »[٨]

من هـذه الخلاصة الوجيـزة ، والملاحظـات السريعة ، يتبـين لنا كم هـو واسـع ومركب ، منهج الجاحظ . وكم هي عديدة قواعده ، ومحكمة ومنسجم بعضها مع بعض . وعندما ندرك أبعاد منهج الجاحظ المنطقي العلمي الاخـلاقي ندرك سـرا من أسـرار عبقريته ، وتطمئن نفوسـنا الى جديـة دراسـاته وموضوعيتها .

٣ ـ فلسفة الجاحظ في الانسان

الانسان أهم مخلوق في العالم ، ومن أجله خلقت السموات والارض وما بينهما كما قال عز وجل : « سخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه . »[٩] وسمي الانسان العالم الصغير سليل العالم الكبير لما فيه من جمع أشكال ما في العالم الكبير[١٠] . وينقسم كل ما في العالم من الاجسام الى نام وغير نام ، أو الى جماد ونام كما هو التعبير الشائع . وتدخل الافلاك والبروج والنجوم والشمس والقمر في عداد الاجسام غير النامية . والنامي على

قسمين : حيوان ونبات . والحيوان على أربعة أقسام : شيء يمشي ، وشيء يطير ، وشيء يسبح ، وشيء ينساح . والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات .[١١]

ويمتاز الانسانعن سائر أقسام الحيوان بالعقل ، والمعرفة ، والاستطاعة . وفكرة الاستطاعة أساسية في فلسفة الجاحظ . لان الانسان اذا لم يكن مستطيعا لم يكن حرا في إتيان الفعل وتركه ، وفي اختيار الخير وترك الشر . وحرية الاختيار أصل من أصول المعتزلة ، بل هي جوهر انسانية الانسان ، وتشمل سائر ما يعتبره الجاحظ من ميزات الانسان على الحيوان . فحرية الاختيار تشترط الاستطاعة ، والاستطاعة تشترط المعرفة ، والمعرفة تشترط العقل وما يعاونه على الادراك من الحواس .

يقول الجاحظ في الفرق الذي بين الانسان والحيوان : « إن الفرق الذي بين الانسان

والبهيمة ، والانسان والسبع والحشرة ، والذي صير الانسان الى استحقاق قول الله عز وجل : « وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه » ليس هو الصورة ، وأنه خلق من نطفة وأن أباه خلق من تراب ، ولا أنه يمشي على رجليه ، ويتناول حوائجه بيديه ، لان هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين ، والاطفال والمنقوصين • والفرق ، الذي هو الفرق ، إنما هو الاستطاعة والتمكين • وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة • وليس يوجب وجودهما وجود الاستطاعة • »[١٢]

جوهر الانسانية ، اذن ، هو الاستطاعة وحرية الاختيار • فاذا عدم الانسان التميز واستطاعة الاختيار كان واحدا من الاشياء المسخرة • فالبهائم والسباع لا تعرف الا ما ألهمت معرفته ، ولا تصنع الا ما ركب في طبعها وغريزتها أن تصنعه • وأما الانسان فبامكانه أن يتعلم ما لا يعرف ، ويتدرب على

صنع ما لم يكن يحسن صنعه • وبامكانه أن ينتقل من معرفة الى معرفة ، ومن علم الى علم ، ومن صناعة الى صناعة ، باختياره واقتداره وبحسب طاقته •

يقول الجاحظ : « والعاقل الممكن لا يفضل في هذا المكان على الاشياء المسخرة ، ولا ينفصل عنها في هذا الباب • وليس عند البهائم والسباع الا ما صنعت له ، ونصبت عليه ، وألهمت معرفته وكيفية تكلف أسبابها والتعلم لها من تلقاء أنفسها • فاذا أحسن العنكبوت نسج ثوبه وهو من أعجب العجب ، لم يحسن عمل بيت الزنبور • واذا صنع النحل خلاياه مع عجيب القسمة التي فيها ، لم يحسن أن يعمل مثل بيت العنكبوت • والسرفة ــ التي يقال : « أصنع من سرفة » ــ لا تحسن أن تبني مثل بيت الارضة ، على جفاء هذا العمل وغلظه ، ودقة ذلك العمل ولطافته • وليس كذلك العاقل وصاحب التميز ، ومن ملك التصرف ، وخول الاستطاعة • لانه يكون ليس بنجار

فيتعلم التجارة ، ثم يبدو له بعد الحذق الانتقال الى الفلاحة ، ثم ربما ملها بعد أن حذقها ، وصار الى التجارة » .(١٣)

وانما كانت الاستطاعة وحرية الاختيار هي أساس أنسانية الانسان لان المصلحة اقتضت امتزاج الخير بالشر في الدنيا . فلو لم يكن الا الشر الصرف لهلك الخلق . ولو لم يكن الا الخير الصرف لم تعد حاجة لعقل ولا حرية ولا استطاعة ، وعاد الخلق جميعا الى حال الغباوة والبلادة ، وأصبحوا أشياء مسخرة ، لا فكر لها ، ولا أختيار ، ولا متعة ولا لذة . يقول الجاحظ : « أعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا الى انقضاء مدتها ، امتزاج الخير بالشر ، والضار بالنافع ، والمكروه بالسار ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة . ولو كان الشر صرفا هلك الخلق ، أو كان الخير محضا سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة . ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة . ومتى ذهب

التخيير ذهب التمييز ، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم ، ولم يكن علم ، ولا يعرف باب التبين ، ولا دفع مضرة ، ولا اجتلاب منفعة ، ولا صبر على مكروه ولا شكر على محبوب ، ولا تفاضل في بيان ، ولا تنافس على درجة . وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة . ولم يكن على ظهرها محق يجد عز الحق ، ومبطل يجد ذلة الباطل ، وموقن يجد برد اليقين ، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم . ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الاطماع . ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس ، ومن جهل اليأس جهل الامن . وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق ، ومن الانس الذين فيهم الانبياء والاولياء ، الى حال السبع والبهيمة ، والى حال الغباوة والبلادة ، والى حال النجوم في السخرة ، فانها أنقص من حال البهائم في الرتعة . ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج ، أو برجا من

البروج ، أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرة بأسرها ، أو مكيالاً من الماء أو مقدارا من الهواء ؟ وكل شيء في العالم فانما هو للانسان ، ولكل مختبر ومختار ، ولاهل العقول والاستطاعة ، ولاهل التبين والروية • »(١٤)

قد يقول بعض من يقرأ هذا البحث لقد أكثرت من ايراد مقتبسات مطولة من الجاحظ ، فلو أشرت اليها اشارة ، أو اختصرتها اختصارا ، لابلغت • فاقول : نعم ، وساورد المزيد منها فيما يلي هذا من البحث • ولا اعتذر عن تصرفي هذا ، فأنا أحب أن أشرك القراء ، ممن لا يجدون كتب الجاحظ ، في نعمة قراءة هذه النصوص • ومن يقرأ هذا النشيد العلوي الجاحظي في مدح الانسان هل يستطيع السكوت فلا يغنيه على مسامع الدنيا ؟

والانسان كائن ذو طبيعة غنية معقدة ، تزيدها البيئة وتغير شروط الحياة الاجتماعية غنى وتعقيدا •

وقد درس الجاحظ طبيعة الانسان واستبق في معرفة جوانب من أسرارها نتائج العلم الحديث • وهو يرى أن جميع قوى الانسان وغرائزه انما جعلت للقيام بطبيعته ، فلا يجوز تعطيلها وترك استعمالها • ومن أكبر الغرائز وأقواها وأعمها غريزة الجنس • واذا سد على غريزة ما طريق عملها ، كأن يبطل العضو الذي تحقق به نشاطها ، أختل توازن النفس ، أو تحولت القوة الكامنة فيها الى غريزة أخرى فقوتها وزادت من نشاطها • وأظهر ما يكون ذلك في غريزة الجنس • فالخصي المحروم من اشباع هذه الغريزة تزداد عنده شهوة الطعام • يقول الجاحظ : « فاذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغال النفس بالاصناف الكثيرة من اللذة والالم ، فباضطرار أن تعلم أن تلك القوى لم تبطل من التركيب ، ولم تعدمها الخلقة ، وانما سد دونها بسد ، وأدخل عليها حجاب ، فلابد لها اذا كانت موجودة من عمل ، لان عمل كل جوهر

لا يعدم الا بعدم ذاته . فاذا صرفت من وجه فاضت من وجه ، ولاسيما اذا جمت ونازعت . ولابد اذا زخرت وغزرت ، وطفت وطمت ، من أن تفيض أو تفتح لنفسها بابا ، وليس بعد المنكح باب له موقع كموقع المطعم ، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح وما يشتمل عليه باب المنكح ، الى القوة التي عنده للمطعم ، فاذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان ابلغ في حكمه ، وأبعد غاية في سبيله . ولذلك صار الخصي اكل من أخيه لامه وأبيه . »[15]

يدرس الجاحظ الخصاء دراسة عالم موضوعي فيصف آثاره على الذكاء والسلوك سلبا وايجابا (الحيوان ١ : ١١٦ — ١١٧ ، ١١٩) . ولكنه ، وهو الفيلسوف الانساني الاخلاقي ، يصدر على من يتعاطونها أعنف النقد واللوم والتجريم ، فيقول : « وكل خصاء في الدنيا فانما أصله من قبل الروم ، ومن العجب أنهم نصارى ، وهم يدعون من الرأفة

والرحمة ورقة القلب والكبد مالا يدعيه أحد من الاصناف . وحسبك بالخصاء مثلة ! وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ! »[16]

خلق الله آدم من تراب ، وخلق جميع البشر من نطفته . هذه عقيدة مسلمة عند المسلمين وعند جميع الملل من أهل الكتاب . فكيف انقسم البشر الى أجناس واعراق وأمم وشعوب ، مختلفة في الصور والالوان ، واللغات ، والطبائع ، والعادات ، والفضائل ؟ سؤال شغل ، ومازال يشغل ، تفكير علماء الاحياء والانتروبولوجيا والنفس والاجتماع والمؤرخين والفلاسفة أجمعين . ويعلل الجاحظ ذلك بأسباب عديدة ، أضافة الى التعليلات الدينية والمأثورات ، تشمل الاستعداد الطبيعي ، والوراثة والمنشأ ، والبيئة الطبيعية والاجتماعية ، والالفة والعادة ، والظروف المختلفة التي تيسر للانسان

الحصول على المعرفة والتقدم في العمران ، أو تعيقه وتشل سعيه •

لكل انسان استعداد طبيعي لصنف من المعارف والصنائع دون غيره ، ولابد لذلك الاستعداد من الظهور اذا توفرت له الدواعي والاسباب الضرورية • ولهذا كان طلب العلم أحب الى بعض الناس ، وطلب الصناعة أحب الى غيرهم • ومهما تكلف الانسان اظهار خلاف ما في طبعه ، بان ذلك عليه ، ولم يفلح في اخفائه • وهذه الظاهرة النفسية الطبيعية تواجه المرء بمشكلة أساسية من مشكلات الفلسفة قديما وحديثا ، الا وهي مشكلة حرية الانسان ، أو الجبر والتسيير ، مع ما ينبني على ذلك من نتائج خطيرة في الاحكام الخلقية على سلوك الانسان • فاذا كان للانسان استعداد طبيعي للقيام بعمل من الاعمال ، وعدم الاستعداد للقيام بعمل آخر ، بطل الحساب ، وانتفت المثوبة والعقوبة ، وصار الاخيار مساوين للاشرار ،

لان الكل ، بحسب هذه المقولة ، انما هم اسرى طبائعهم ، مقيدون باستعدادهم الفطري الطبيعي • وقد واجه الجاحظ هذه المشكلة ، وقدم لها الحل الذي ارتضاه المعتزلة ، وهو أن الانسان أعطي الاستعداد للفعل ، وامكان القيام به ، ولكنه لم يسخر للقيام بذلك الفعل ، ولم يجبر عليه • « فان زعمتم أن كل واحد من هؤلاء انما هو رهن بأسبابه ، وأسير في أيدي علله ، عذرتم جميع اللئام وجميع المقصرين ، وجميع الفاسقين والضالين • وان كان الامر الى التمكين دون التسخير ••• » •[17] وهذا ، في رأيي ، لا يجيب عن السؤال اجابة مقنعة ، ويبقى السؤال قائما : ولماذا مكن هذا ولم يمكن ذاك ؟ ولكن فضيلة الجاحظ ، وكل المعتزلة ، انما هي في تبنيهم حرية الانسان ، ودفاعهم عن هذه الحرية ، بالحجج القوية والضعيفة ، وايمانهم بقدرة الانسان على التغلب على العقبات • ومازالت حرية الانسان هي محور كل

الفلسفات في عصرنا الحاضر ، وأغلب ظني أنها ستظل محور كل فلسفة في المستقبل .

ويؤكد الجاحظ على أثر البيئة الطبيعية على الانسان . وتكيف الانسان لها . ويعني بالبيئة الطبيعية : الارض وتربتها ، وماءها ، وهواءها ، وحرارتها وبرودتها ، ومافيها من نبات وحيوان . وتعمل البيئة ، على مرور الايام ، على تغيير ألوان الناس ، وصورهم ، وطبائعهم ، وأخلاقهم . يقول الجاحظ : « ... لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام ، كما عمل ذلك في طباع الزنج ، وطباع الصقالبة ، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . وقد رأينا العرب ، وكانوا أعرابا حين نزلوا خراسان ، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني . وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم . وترى جراد البقول

والرياحين وديدانها خضراء ، وتراها في غير الخضرة على غير ذلك ... وقد نرى حرة بني سليم ، وماشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء . »[١٨] ويعيد الجاحظ وصف أثر البيئة في الانسان ، ويتوسع في شرحه وتفصيله ، في مواضع عديدة من كتبه .[١٩] وسنذكر طرفا منها فيما يأتي من هذا البحث .

ولا يقل تأثير البيئة الاجتماعية على الانسان عن البيئة الطبيعية ، من منشأ ، وتربية ، ومهنة وصناعة ، وعادة ، وعقيدة ، وما الى ذلك من مؤثرات المجتمع وأنظمته ، والافكار والعادات والتقاليد السائدة فيه .

ان الام الجاهلة ، والمربية الخرقاء ، تفسدان بسوء تربيتهما ورياضتهما طباع الطفل ، فيخرج أحمق ، سريع الضجر . يقول الجاحظ : « فان الصبي

يبكي بكاء شديدا متعبا موجعا • فـاذا كانت الام جاهلة حركته في المهد حركة تورثه الدوار ، أو نومته بأن تضرب يدها على جنبه • ومتى نام الصـبي وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ، ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره ، حتى يكون نومـه على سرور ، فيسري فيه ويعمل في طباعه ، ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم ، فان ذلك مما يعمل في الفساد • والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء اذا لـم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين ، كثـر منهـا ذلك الفساد وترادف ، وأعان الثاني الاول والثالث الثاني ، حتى يخرج الصبي مائقا • »[٣٠]

فاذا نشأ الصبي ، وقع تحت تأثير أسـرته ، ومحلته ، والمهنة التي يمتهن ، والجماعة التي يتعاون معها على تحصيل القوت ، ويشـاركها في أسـباب المعيشة الاخرى • وأبناء المهنة الواحـدة يتشابهون

في أمور كثـيرة وان أختلفت بلدانهـم وأجناسـهم وأعمارهم •

يقول الجاحظ : « والعامـة والاغنياء والسفلة كأنهم أعذار عام واحد•وهم في باطنهم أشد تشابها من التوأمين في ظاهرهما ، وكذلـك في مقادير الاعتراض والتسرع ، وان اختلفت الصـور والنغم والأسـنان والبلدان ••• الاترى أنك لا تجد بدّا في كل بلدة وفي كل عصر للحاكة فيهم على مقدار واحد وجهة واحدة ، من السخط والحمق ، والغبـاوة والظلم • وكذلك النخاسون على طبقاتهم ، من أصناف مايبيعون • وكذلك السـاكون والفلاسون • وكذلك أصحـاب الخلقان كلهم . في كل دهر وفي كل بلد ، على مثال واحـد ، وعلى جهة واحدة • وكل حجام في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ ، وان اختلفوا في البلدان والأجناس والأسنان »[٣١] •

وللعقيدة الدينية أثر عظيم عـلى معتنقيها • فاذا كانت العقيدة تدعو الى القتال أصبحوا مقاتلين شجعانا، واذا كانت العقيدة تدعو الى المسالمة والموادعة اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء ، حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفا • يقول الجاحظ : « ••• قد علمنا أن الروم قبل التديّن بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالا ، فلما صارت لاتديـن بالقتل والقتال والقود والقصاص . اعتراهم مثـل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكلّفون القتال تكلّفا • ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسرت في دمائهم ولحومهم ، فصارت تلك الديانة تعترض عليهم . خرجوا من حدود الغالبين الى أن صاروا مغلوبين • والى مثل ذلك صارت حال التغزغز من الترك ، بعد أن كانـوا كانوا فيالعدد أضعافهم،فلما دانوا بالزندقةودين الزندقة كانوا في العدد أضعافهم، فلما دانوا بالزندقة في الكف والسلم أسوأ من النّصارى ، نقصت تلك الشجاعة ،

وذهبت تلك الشهامة • »[٣٢] ويؤكد الجاحظ هـذه الفكرة في معرض تعليلهلبسالة الخوارج فيقول : « على أنا قد علمنا أن العلة التي عمّت الخوارج بالنجـدة استواء حالاتهم في الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين • لأننا حين وجدنا السجستاني والخراساني والجزري واليمامي والمغربي والعماني ، والأزرقي منهم والنجدي والأباضي والصّفري ، والمولى والعربيّ ، والعجميّ والأعرابيّ ، والعبيد والنساء ، والحائك والفلاح ، كلّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان ، علمنا أن الديانة هي التـي سوّت بينهم ، ووفقت بينهم في ذلـك »[٣٣] .

ويؤكد الجاحظ على أثر البيئة والمحيط وظروف المعيشة في نشوء العادات والتقاليد ، وعلى أثر هـذه العادات والتقاليد في التحكّم في أخلاق الناس وسلوكهم وعقائدهم وأفكارهم • ويصوغ الجاحظ فكرته عن شدة تأثير العادة بقوله : « العادة توأم الطبيعة »[٣٤] .

فكان العادة ، لشدة رسوخها في النّفس وتحكّمها فيها ، تصير قوة من قوى الطبيعة ، تخضع الانسان لأمرها ان لم يبتكر السبل والوسائل للسيطرة عليها .

وقد أرجع الجاحظ الى تأثير العادة والتقاليد كثيرا من تصرفات الناس حتى شهواتهم وأنماط تعبيرهم عن الغرائز ، فيقول مثلا : « قالوا : وان نظر البيضان الى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك السودان في نساء البيضان ، على ان الشهوات عادات واكثرها تقليد من ذلك اذا أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والاغوار . واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فانما يشتهون جلبهم وسَبْيَهم . الا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس »[٢٥] .

وتؤثر البيئة الطبيعية، والبعد عن الحياة الاجتماعية المعتادة ، على عقول بعض الناس فتورثهم أفكارا

وأخيلة وتصورات يحسبونها حقائق واقعة ، فيتوهمون ما تصوروه في أذهانهم موجودا في الحقيقة ، ويرون مالا يراه الآخرون ، ويسمعون مالا يسمعون . وينقل الجاحظ تعليلا مفصلا لهذه الظاهرة عن شيخه أبي اسحاق النظام ، ويعلق على هذا التعليل بما يفيد انه يقره ويعتمده . « وكان ابو اسحاق يقول في الذي تذكر الاعراب من عزيف الجنّان ، وتغوّل الغيلان : أصل هذا الأمر وابتداؤه ، أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش . عملت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ، والبعد من الانس ، استوحش ، ولاسيما مع قلة الاشغال والمذاكرين . والوحدة لاتقطع أيامهم الا بالمنى أو بالتفكير . والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة ... واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرّق ذهنه ، وانتقضت أخلاطه ، فرأى مالا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على الشيء اليسير

الحقير ، انه عظيم جليل . ثم جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعرا تناشدوه، وأحاديث توارثوها، فازدادوا بذلك ايمانا ، ونشأ عليه الناشيء ، وربي به الطفل . فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس ، فعند أول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور . وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذابا نفّاجا ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة . فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ! وكلمت السعلاة ! الى أن يقول : رافقتها ! ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول : قتلتها ! ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : تزوجتها . ومما زادهم في هذا الباب ، واغراهم به،انهم ليس يلقون بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الا اعرابيا مثلهم،والا عاميا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك . ولم يسلك

سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط . واما أن يلقوا راوية شعر ، أو صاحب خبر ، فالراوية كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده . وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه اكثر . فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول ، أو قتلها ، أو مرافقتها ، أو تزويجها . وآخر يزعم أنه رافق في مغارة نسرا . فكان يطاعمه ويؤاكله ... والانسان يجوع فيسمع في أذنه مثل الدويّ ... »[36] .

ويفسّر الجاحظ سبب اختلاف نجاح الناس في الحصول على المعرفة ، التي لابد منها لاتقان كلّ مهنة وصنعة . بجملة من العوامل الطبيعية والاجتماعية التي تحدثنا عنها . يقول في أهمية المعرفة : « ويد الانسان لاتكون أبدا الا خرقاء ، ولا تصير صنّاعا مالم تكن المعرفة ثقافا لها ، واللسان لايكون أبرأ ، ذاهبا في طريق البيان ، متصرفا في الألفاظ ، الا بعد أن تكون المعرفة متخللة به ، منقلة له ، واضحة له في مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه . »[37]

وبعدد الموانع التي تحول بين الانسان البالغ وبين المعرفة ، ومنها أمور من صنع الانسان نفسه ، أو من صنع ظروفه وبيئته ، ومنها أمور هي في أصل طبيعة بعض الناس ، ومنها مايكون من قبيل الأخلاط الأربعة ، الدم والبلغم والصفراء والسوداء ،ومنها مايكون من سوء العادة ، واهمال النفس ، ومن قبيل الشواغل العارضة ، ومن أسباب ذلك أيضا : سوء أساليب المعلمين . وفساد خرق المؤدبين . « وانما يمتنع البالغ من المعارف من قبل أمور تعرض من الحوادث ، وأمور في أصل تركيب الغريزة . فاذا كفاهم الله تلك الآفات ، وحصنهم من تلك الموانع ، ووفر عليهم الذكاء ، وجنب اليهم الخواطر ، وصرف أوهامهم الى التعرف ، وحبب اليهم التبين ، وقعت المعرفة وتمت النعمة . والموانع قد تكون من قبل الأخلاط الأربعة على القلة والكثرة ، والكثافة والدقة . ومن ذلك ما يكون من جهة سوء العادة ، واهمال النفس ،

فعندها يستوحش من الفكرة ، ويستثقل النظر . ومن ذلك ما يكون من الشواغل العارضة ، والقوى المنقسمة . ومن ذلك ما يكون من خرق المعلم ، وقلة رفق المؤدب ، وسوء صبر المثقف . فاذا صفى الله ذهنه ونقحه ، وهذبه وثقفه ، وفرغ باله ، وكفاه انتظار الخواطر ، وكان هو المفيد له والقائم عليه ، والمريد لهدايته ، لم يلبث أن يعلم »[٣٨] .

وفوق كل العوامل التي تتحكم في حياة الناس ، والتي عرضنا لبعضها فيما تقدم ، يأتي عامل الحظ والمصادفة ، ليؤثر فيما يصيبه الانسان من رزق وحرمان ، وما يناله من خمول أو رفعة وشهرة وحظوة. يقول الجاحظ : « وليس الى الناس بعد الهمم وقصرها ، وانما تجري الهمم باهلها الى الغايات على قدر ما يعرض لهم من الاسباب . الاترى ان ابعد الناس همة في نفسه ، وأشدهم تلفتا الى المراتب ، لا تنازعه نفسه الى طلب الخلافة ، لان ذلك يحتاج الى نسب ،

او الى امر قد وطيء له بسبب ••• وقد زعم ناس من العلماء أن رجالا خطبت للسيادة والنباهة والطاعة في العشيرة •• وكذلك القبيلة ربما سعدت بالحظ ، وربما حظيت بالجد . وانما ذلك على قدر الانفاق ، هو كالمعافى والمبتلى . وانما ذلك كما قال زهير :

وجدت المنايا خبط عشواء من تُصِبْ
تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وكما تحظى بعض الاشعار وبعض الامثال . وبعض الالفاظ دون غيرها ، ودون ما يجري مجراها او يكون أرفع منها ••• فكم من بيت شعر قد سار . وأجود منه مقيم في بطون الدفاتر ، لاتزيده الأيام الا خمولا ، كما لاتزيد الذي دونه إلا شهرة ورفعة • وكم من مثل قد طار به الحظ حتى عرفته الاماء ورواه الصبيان والنساء • وكذلك حظوظ الفرسان ••• » (الحيوان : ١٠٢ ـ ١٠٣)

وبعد ان عرضنا ، هذا العرض السريع ، لبعض العوامل العديدة التي يعلل بها الجاحظ سبب اختلاف

أجناس الناس . وعاداتهم ، وتقاليدهم ، هل بقي خافيا علينا موقفه من مفهوم الانسانية والعرقية وضروب مختلف العصبيات ؟ الا انه من ينظر الى الناس كما نظر اليهم الجاحظ بمنهجه العلمي المنطقي المحكم،وعقله المصمم على اختراق الظاهر للنفاذ الى الجوهر والاحاطة بكل علة : لا يمكن الا أن يكون انسانيا ، سمحا ، يرفض كل تمييز بين الناس لايقوم على أساس الفضل الذاتي والكفاءة والعمل النافع ، ويكره كل تعصب ، ونفاق ، واستعلاء • وهذا معروض ظاهر في مواضع كثيرة من كتبه : اكتفي بالاشارة الى صفحة منها (الحيوان : ١ : ١٧٣ : ٢١٨) يعري فيها زيف طائفة من المتعصبين المتشددين : ينتمون الى اكثر من قوم ونحلة ، يظهرون الزهد والتشدد فيما يمارسون من أعمال . ويكثرون من العيب في الناس ، ليخفوا ما في انفسهم من نقص وفساد • ويذكر من بينهم الخراساني، والخارجي ، والبنوي ، واليهودي والنصراني ،

والراهب ، والمتصوف . واكتفى باثبات ما قاله عن المتعصبين من الخوارج وممن ينتحلون علم الكلام . « ... فنسك المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمي الناس بالريبة ، ويتزين باضافة ما يجد في نفسه الى خصمه ، خوفا من أن يكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك الداء برمي الناس به ... فاذا رمي المتكلم المريب أهل البراءة . ظنّ أنه قد حوّل ريبته الى خصمه . وحوّل براءة خصمه اليه ... ولم نجد في المتنسكين أظلف ولا أكثر عيوباً . ممن يرمي خصومه بالكفر ... ونسك الخارجي الذي يتحلى ويتزيّا بجباله ، اظهار استعظام المعاصي ؛ ثم يلتفت الى مجاوزة المقدار الى ظلم العباد ، ولا يقف على انّ الله تعالى لا يحب ان يظلم أظلم الظالمين ، وأنّ في الحق ما وسع الجميع » .

٤ ـ موقف الجاحظ من الاجناس والاقوام

ألف الجاحظ كتبه الكبيرة ورسائله المهمة ، الحيوان والبيان والتبيين ومناقب الترك ومناقب السودان وغيرها ، على امتداد النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري ، من عهد الخليفة العباسي المأمون الى نهاية عهد الخليفة المتوكل على الله أو ما بعده بقليل . وفي هذا العصر بلغت الحضارة العربية غاية ازدهارها الخلاق أو كادت ، في الفكر ، والادب ، والاقتصاد ، والعمران عموما . وكان هذا العصر فترة قلق سياسي ، وتنافس على السلطة المركزية بين الأقوام

المعيار الأساس الـذي يقيس به قيمة الانسان هـو مقدار عمله النافع للناس •

ولم يكن ليقيس فضائل قوم من الأقـوام بتفاوت العرق واصالة النسب ، بـل لم يهتم بذلك كثـيرا • وكان ينظر الى اختلاط الأعـراق نظرة عالم يدرس الظاهرة ويسجل نتائج دراسته • ومما وجـده ان اختلاط الأجناس والأعراق يؤدي الى ولادة نسـل اقوى واضخم ، او احسن واملح ، من أصليه • وهو يقول في هـذا الموضـوع : « ورأينا الخلاسي مـن الناس ، وهو الـذي يتخلق من الحبشيّ والبيضـاء والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه واقوى مـن أصليّه ومشريه • ورأينا البَيْسَري من الناس ، وهو الذي يخلق من البيض والهنـد لايخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما ولكنه يجيء احسن واملح »[٣٠] •

كان الجاحظ ، كما يقول هو عن كتاب الحيوان

« عربيا أعرابيا ، ومسلما جماعيا »•وكذلك كان حقا • كان عربيا أصيلا ، ان لم يكن أصالة نسب فباصالة الولاء والمحبـة والشعور الغامر بالانتماء للعـرب • وكان مسلما شديد الغيرة على عقائد الاسلام ، عظيم الحرص على وحدته ووحدة المؤمنين به • ومن هنا كان دفاعه عن العرب والاسلام تجاه الشعوبية الحاقدة ، وتصديـه بالنقد العنيف للديانات والمذاهب الفارسية القديمة التي كان خطرها على وحدة الدّولة ووحدة العقيدة الاسلامية لا يقل عن خطر الشعوبية على أصالة الحضارة العربية • ولكنه ، في معظم ما كتب ، ظلّ ملتزما بشرطه الذي اشترطه على نفسه ، وهو عـدم الخروج من حدّ الحمية الى حدّ العصبية ، فلم ينزلق من الدفاع المشـروع عن العرب ، والمدح الصـادق لمناقبهم ، الى العصبية الضيقة التي تبخس حقـوق الآخرين • وهو في كل ما كتبه عن الأقوام المختلفة كان يبحث عن مناقبهم فيسجلها ، ويمدحها ويثني عليهـا ،

المعيار الأساس الـذي يقيس به قيمة الانسان هـو مقدار عمله النافع للناس •

ولم يكن ليقيس فضائل قوم من الأقـوام بنقاوة العرق وأصالة النسب ، بـل لم يهتم بذلك كثـيرا • وكان ينظر الى اختلاط الأعـراق نظرة عالم يدرس الظاهرة ويسجل نتائج دراسته • ومما وجـده أن اختلاط الأجناس والأعراق يؤدي الى ولادة نسـل أقوى وأضخم ، أو أحسن وأملح ، من أصليه • وهو يقول في هـذا الموضـوع : « ورأينا الخلاسي مـن الناس ، وهو الـذي يتخلق من الحبشيّ والبيضـاء ، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه ، واقوى مـن أصليّه ومثمريه • ورأينا البَيْسَرِيّ من الناس ، وهو الذي يخلق من البيض والهنـد ، لايخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما ولكنه يجيء أحسن واملح »[٣٠] •

كان الجاحظ ، كما يقول هو عن كتاب الحيوان « عربيا أعرابيا ، ومسلما جماعيا » •وكذلك كان حقا • كان عربيا أصيلا ؛ ان لم يكن أصالة نسب فباصالة الولاء والمحبـة والشعور الغامر بالانتماء للعـرب • وكان مسلما شديد الغيرة على عقائد الاسلام ، عظيم الحرص على وحدته ووحدة المؤمنين به • ومن هنا كان دفاعه عن العرب والاسلام تجاه الشعوبية الحاقدة ، وتصديـه بالنقد العنيف للديانات والمذاهب الفارسية القديمة التي كان خطرها على وحدة الدّولة ووحدة العقيدة الاسلامية لا يقل عن خطر الشعوبية على أصالة الحضارة العربية • ولكنه ، في معظم ما كتب ، ظلّ ملتزما بشرطه الذي اشترطه على نفسـه ، وهو عـدم الخروج من حدّ الحمية الى حدّ العصبية ، فلم ينزلق من الدفاع المشـروع عن العرب ، والمدح الصـادق لمناقبهم ، الى العصبية الضيقة التي تبخـس حقـوق الآخرين • وهو في كل ما كتبه عن الأقوام المختلفة كان يبحث عن مناقبهم فيسجلها ، ويمدحها ويثني عليهـا ،

واذا ذكر ما يَعُدّه هو ، اوما يعدّه الجمهور ، منقصة ومثلبة ، كان يعلله في أكثر الأحيان بظروفه الطبيعية والاجتماعية • ولعناية الجاحظ بوضع كلّ قوم ضمن شروط بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، ولتعمقه بدراسة العلاقات المتشابكة المعقدة القائمة بين الانسان وبيئته ، كان مؤسس الجغرافية البشرية عند العرب ، ومن كبار روّادها في الآداب العالمية • وفي هذا تتجلى انسانية ، واتساع آفاقه الفكرية والروحية ، ورفضه لكل عصبية وعنصرية •

٥ ـ العرب

قضى الجاحظ حياته الطويلة في دراسة أحوال العرب تاريخا وفكرا ولغة ودينا ومجتمعا وعادات وتقاليد وأخلاقا وحضارة • واستحق بجهده الدائب ، وعبقريته الفذّة ، أن يكون أديب العربية ، ولسانها المبين • وكان يعتز بالعرب ، ويفضلهم على سائر الخلق ، لا عن عصبية ، وانما عن قناعة سندها ما صح لديه من أدلة وشواهد وبراهين • يتقدم العرب على جميع الأمم بخصال يفصلها الجاحظ في معظم كتبه ، وسنذكر بعضها فيما يأتي من البحث •

وتتقدم قريش سائر العرب بخصال اختصوا بها

دون العرب • وبانت بنو هاشم بخصال اختصوا بها دون قريش «فأول ذلك النبوة التي هي جماع خصال الخير وأعلاها وأفضلها وأجلها وأسناها »[٣١] • ولم يكن الجاحظ هو الوحيد في تفضيل العرب وتقديمهم على سائر الأقوام والأمم الاسلامية • فالأقوام الذين سنتناولهم بالبحث فيما يأتي كلهم يحاولون الانتساب للعرب ، ويتبارون في اظهار ولائهم للخلفاء • وهم في هذا يصدرون عن شعور بفضل العرب ، وأهميتهم ، وعلو شأنهم، وأنهم أصحاب الدولة والسيادة والدين• وهو مع اعتزازه بالعرب ، والى جانب تخليده لمآثرهم ومناقبهم ، لم يغفل عن نواقصهم وسلبياتهم ، وما كان يجرى بينهم من خلافات وصراعات وعداء ، وما رواه بعضهم في بعض من هجاء ، ولم يهمل ما ذكره أعداؤهم عنهم ، وما قاله خصومهم فيهم • ولم يغفل ما أخذه العرب من الأمم الأخرى من فكر فانتفعوا به • ويذكر أسبقية الفكر اليوناني ، في الزمن ، على الشعر العربي ،

وهو مفخرة العرب ، وفضل النثر في المنفعة على الشعر، وامكان نقل النثر من لغة الى لغة واستحالة نقل الشعر لعدم امكان نقل الوزن وهو المعجز في الشعر • ويقول : « وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا ، ولو حولت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن ، مع انهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم •وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ، ومن قرن الى قرن ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت الينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها ••• »[٣٢] • والحق أن دراسة أبحاث الجاحظ في العرب تستغرق جهود أجيال من العلماء والباحثين • وسأذكر طرفا منها فيما يأتي من البحث ، وأعرض هنا موقف الجاحظ من وحدة العرب •

الجدل بين القحطانية والنزارية ، أو العدنانية ،

حول اصولهم ، وأصالتهم في العربية ، ومدى ما بينهم من القرابة والتباعد ، قديم وازداد هذا الجدل والخلاف بعد ظهور الاسلام حدة . وضراوة . وقد حاول اهل المصالحة والتوفيق من النزارية أن يحسموا الخلاف ويقربوا بين الفريقين . ومجمل رأيهم في الموضوع : أن الله ألهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام العربية الهاما ، وأنطقه بالعربية المبينة على غير التلقين والتمرين . وعلى غير التدريب والتدريج وبذلك صار عربيا . أعجمي الأبوين . والحال في أول أجداد القحطانيين شبيهة بهذا . وأول من عليه أن يقر بهذا القحطاني . فانه لابد من أن يكون له أب كان أول عربي من جميع بني آدم . ولو لم يكن ذلك كذلك ، وكان لا يكون عربيا حتى يكون أبوه عربيا كذلك . وكذلك أبوه ، وكذلك جده ، كان ذلك موجبا لأن يكون نوح عربيا ، وكذلك آدم . واذا كان الله قد بعث محمدا

صلى الله عليه وسلم الى العجم فضلا عن العرب ، فقحطان . وان لم يكونوا من قومه ، أحق بلزوم الفرض من سائر العجم . يروي الجاحظ رأي النزارية هذا ، ولا يرتضي استدلاله وان أدى الى نتيجة مقبولة الظاهر . ويرفض أسلوب وضع السؤال وطريقة الوصول الى الجواب . وهو يؤكد ، على أساس من نظريته في البيئة الطبيعية والاجتماعية . أن العرب شيء واحد . وأن مايشاهد من انقسامهم الى قحطانية ونزارية . والى قبائل وعشائر ، جذور راسخة توحدهم، وتميزهم من سائر الناس . وأهم عوامل الوحدة المتينة بين العرب أن دار العرب وجزيرتهم واحدة . وأخلاقهم وشيمهم واحدة ، ولغتهم واحدة ، واتفاقهم في الأخلاق وفي الاعراق ، والمناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء . ولأن العرب جميعا يد على العجم . وعلى كل من حاربهم من الأمم . ويمثل رأي الجاحظ هذا ، ومنهجه في الاستدلال عليه ، أوضح

واقوى بيان عن وحدة العرب في المصادر العربية القديمة: وهذا نص كلام الجاحظ عن وحدة العرب : « وهذا الجواب جواب عوام النزارية .فاما الخواص الخلص فانهم قالوا : العرب كلهم شيء واحد . لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة . واللغة واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك ، والاتفاق في الأخلاق والأعراق ، ومن جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة . ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطبع الهواء والماء ، فهم بذلك شيء واحد في الطبيعة ، واللغة ، والهمة ، والشمائل ، والمرعى ، والراية ، والصناعة ، والشهوة . فاذا بعث الله عزّ وجلّ نبيا من العرب فقد بعثه الى جميع العرب ، وكلهم قومه ، لأنهم يد على العجم ، وعلى كل من حاربهم من الامم . لان تناكحهم لايعدوهم . وتصاهرهم مقصور عليهم . »(٣٣) . ويزيد الجاحظ هذا البيان شرحا وتوضيحا فيقول : « قالوا : والمشاكلة من جهة الاتفاق

في الطبيعة والعادة ، ربما كان ابلغ واوغل من المشاكلة من جهة الرحم . نعم حتى نراه أغلب عليه من أخيه لامه وأبيه . وربما كان أشبه به خَلقا وخُلقا .وادبا ومذهبا ... »(٣٤) . ويعيد الجاحظ رأيه في وحدة العرب ، بنص عبارته تقريبا ، في رسالته عن الترك . وفي هذا دلالة على أهمية الفكرة عنده، وأنها أساس من أسس فلسفته الاجتماعية والسياسية .

٦ ـ الشعوبية

يفرد الجاحظ كتاب العصا من البيان والتبيين للرد على الشعوبية ، وهم الذين يتعصبون على العرب ويطعنون فيهم ، ويتعصبون للعجم ويغالون في مناقبهم وفضائلهم ومآتيهم ، يوجز فيه موقفه من هذا التيار العنصري المعادي للعرب ، ويعلن فيه عن مجمل آرائه في العرب والعروبة . ويتجلى . في هذا الكتاب ، أسلوبه في المخاصمة والمحاكمة والجدل . والذود عن الحرمات ، ومقارعة المعاندين بالحجة المقنعة ،كما تتجلى فيه انسانية ، وسموّ روحه ، واتساع آفاقه الفكرية ،

وشمول معرفته ، ونبذه كلّ تعصب وهوى . وهو بدفع مطاعن الشعوبية في العرب باظهار بطلانها وتهافتها، ومخالفتها للوقائع التاريخية الثابتة ، والممارسات الاجتماعية المعتادة . ويعرض مفاخر العرب ومناقبهم وفضائلهم وأمجادهم التي تؤيدها الأدلة الثابتة . والروايات المعتمدة ، والمشاهدة العيانية . وهو في دفاعه عن العرب ، وتصديه لمطاعن الطاعنين فيهم ، لا يغالط ولا يعاني ، ولا يهضم حقا لفرد أو لأمة . والجاحظ لا ينسب الشعوبية صراحة الى قوم بعينهم، وان كان واضحا من مادة الكتاب وسياقه أن المقصود، في المقام الأوّل ، هم المتعصبون الحاقدون على العرب من الفرس .

يهزأ الشعوبية من اتخاذ خطباء العرب العصا عند الكلام ، ومن مادة خطبهم وأسلوبها ، ومن طريقة القائهم خطبهم ، ومن سائر حركاتهم . ويطعنون في عادات العرب في الحرب ، وأساليبهم في القتال ، وفي

أسلحتهم ، وفي طريقة ركوبهم للخيل . والقضية ، وإن كانت تدور أصلا حول خطباء العرب وخطبهم ؛ فقد شملت الطعن في مجمل عادات العرب وفضائلهم ومآثرهم . وساكتفي بعرض بعض هذه المطاعن ، وردّ الجاحظ عليها ، لنتعرف موقفه ، ومنهجه ، ومجمل رأيه في الموضوع .

قالت الشعوبية : يفخر العرب بخطبهم البليغة ؛ ويتباهون بها على سائر الأمم . والحال أن الخطابة شيء عام في جميع الأمم . وتحتاجه كل أجيال الناس . فالزنج ، على غباوتهم وغلظ احساسهم ، تطيل الخطب . وتفوق في ذلك كلّ العجم ، وإن كانت معانيها غليظة . وألفاظها جافية .

وتقول الشعوبية : « وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس ، وأعذبهم كلاما وأسهلهم مخرجا وأحسنهم دلّا وأشدهم فيه تحكما

أهل مرو ، وأفصحهم بالفارسية الدّريّة ، وباللغة الفهلوية أهل قصبة الاهواز . فاما نغمة الهربذ ، ونغمة الموبذان ، فلصاحب تفسير الزّمزمة . ومن احب ان يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحّر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند . ومن احتاج الى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والألفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك . فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها . وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحِكَمها ، وهذه كتبها في المنطق قد جعلتها الحكماء بها تعرف السّقَم من الصحة ، والخطأ من الصواب وهذه كتب الهند في حِكَمها وأسرارها ، وسِيَرها وعللها . فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، عرف أين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت الصناعة »[٣٥] .

يظهر من هذه العبارة أن الشعوبيين لم يكتفوا

بتاكيد تفوق الفكر الفارسي على الفكر العربي عقلا ، ومعاني ، وبلاغة ، وبيانا ، وتكامل صناعة ، بل أضافوا الى ذلك تاكيدهم على تفوّق الفكر اليوناني والهندي ، بل حتى الزنجي ، على الفكر العربي • ويرد الجاحظ على هذه الدعوى ردّ فيلسوف عالم لايعنيه الا الابانة عن الحق ، والكشف عن موطن الصواب • ويناقش هذه العبارة فيقرّ مافيها من حق ، ويظهر مافيها من من زيف وباطل ويرده ، ويعلن عن مبدأ عام في كيفية النظر الى الاختلاف في العادات الاجتماعية ، وأساليب التفكير والتعبير ، عند الامم والشعوب • ويقوم هذا المبدأ على أساس من نظرية الجاحظ في البيئة الطبيعية والاجتماعية وأثرهما على الانسان • يرد الجاحظ على مطاعن واعتراضات الشعوبية فيأخذ كل عادة ، وأداة ، وشارة ، وخلق ، فيضعها ضمن شروط بيئتها الطبيعية والاجتماعية ، وضمن محيطها وتقاليدها ، فيظهر بذلك علة وجودها ، وهدفها وفائدتها وعائدتها ، ويوازنها بما لدى الامم

الاخرى من أمثالها مما يلائم طبائعهم وشروط حياتهم في بيئاتهم • يقول الجاحظ : « وجملة القول إنا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس • فأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مخلّدة ، لاتضاف الى رجل متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة . ولليونانيين معروف ، ولا الى عالم موصوف • وانما هي كتب فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وبخصائصه • وهم يزعمون ان جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة • وفي الفرس خطباء ، إلا أنّ كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم • وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ،

وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة . وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام ، والى رَجَز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، او عند المقارعة أو المناقلة ، او عند صراع أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمَه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم يقيده على نفسه ، ولا يُدرِّسه احدا من ولده . وكانوا أميين لايكتبون ، ومطبوعين لايتكلفون ، وكان الكلام الجيّد عندهم أظهر واكثر ، وهم عليه اقدر ، وأقهر ، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه في البيان ارفع ، وخطباؤهم للكلام أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ . أو يحتاجوا الى تدارس ، وليسوا هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبْله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا

تحفظ ولاطلب . وان شيئا [هذا] الذي في أيدينا جزء منه ، لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من أحاط بقطر السّحاب وعدّ التّراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان ، والعالِم بما سيكون »[٣٦] .

ويمضي الجاحظ في نقاش الموضوع والرد على الشعوبية فيقول :

كل هذا على افتراض ان ما وصلنا من خطب الفرس ورسائلهم « صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة » . والحال أننا لا نستطيع أن نؤكد ذلك . في حين أن الدليل على صحة ماقلناه عن بداهة العرب ، وبلاغتهم ، وروعة بيانهم في شعرهم وخطبهم وكلامهم، مازال حيا ، معروضا للسامع والمشاهد . « انك متى اخذت بيد الشعوبيّ فأدخلته بلاد العرب الخُلّص ، ومعدن الفصاحة التامّة ، ووقفته على شاعر مُفلِق ، أو خطيب مِصْقَع ، علم أنّ الذي قلت هو الحقّ ، وأبصر الشاهد عيانا . فهذا فرق ما بيننا وبينهم »[٣٧].

ويختم الجاحظ هـذا النقاش العلمـي اللطيف لمزاعم الشعوبية ، بالاعلان عن مبدأ أساسي من مبادىء النظر في عادات المجتمعات الانسانية المختلفة.وخلاصة هذا المبدأ ان لكل قوم طريقة خاصـة في العيش ، واسلوبا خاصا في التفكـير والتعبير . ولهم عادات متوارثة ، وتقاليد متبعة ، تصلح لحياتهم ، لأنهـا مشتقة من ممارساتهم ، وموضوعة استجابة لحاجاتهم ووفق شروط بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية . فالحكم على عادة مـن العادات ، وأسـلوب من أسـاليب العيش ، يجب الا ينطلق من مبـدأ مجرد مطلـق ، وانما يجب أن يؤسـس على ظروف المجتمع المعينـة ، وشروط الحياة الخاصة به . وهذا هو نص المبـدأ الجاحظيّ ، ومقدمته في وصف الشعوبية وأسـاليب حقدها على العرب : « فتفهم عني ، فهمك الله ماأنا قائل في هذا ، ثم اعلم أنك لم ترَ قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد

استهلاكا لِعرضه ، و لااطول نَصَبا ، ولا أقـل غَنَما ، من أهل هذه النِّحلة . وقد شفى الصدور منهم طولُ جثوم الحسد على اكبادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم ، وغليان تلك المراجـل الفائـرة ، وتسعّر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة ، وزي أهل كـلّ لغة وعللهم ، علـى اختلاف اشاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهيئاتهـم ، وماعلة كلّ شيء من ذلـك ، ولم اختلقوه ، ولـم تكلفوه ، لأراحوا أنفسهم ، ولخفّت مؤونتهم على من خالطهـم »[٣٨] .

وكان الجاحظ يعي اهمية مبدئه هذا في الحكم على عادات الشعوب وأخلاقهم وأسـاليب حياتهم ، فاعاد ذكره ، ليرسخ في أذهان القراء ، وأنا اعيده كما أعاده هو وكرره : « ولو علـم القـوم أخلاق كـل ملّة ، وزيّ أهـل كلّ لغة وعلـلهم في ذلـك ، واحتجاجهم له ، لقلّ شَغبهم ، وكفونا مؤونتهم ... وبالناس ، حفظك الله ، أعظم الحاجة الى أن يكون

لكل جنس منهم سيما ، ولكل صنف منهم حلية وسمة يتعارفون بها »[٣٩] •

ارأيتم (بساطة) التعبير عن المباديء الاجتماعية الكبرى ! ومبدأ الجاحظ هذا لأنه يعبّر عن حقيقة اجتماعية تعبيرا صحيحا ، جاء (بسيطا كل البساطة) ، واضحا كل الوضوح • وهذا المبدأ هو أحد أسس فلسفة الجاحظ في الانسانية ، ونبذه لكل عصبية ، ورفضه لكل عرقية وعنصرية • وهل الانسانية الا احترام الانسان للانسان ؟ وكيف تحترم انسانا اذا لم تفهمه ، كما ينبغي أن يفهم ، ضمن شروط حياته الخاصة ؟ ولو فهم الناس هذا المبدأ الجاحظي حق الفهم ، وأخذوا به في حوارهم وجدلهم وتعاملهم ، لزال أكثر الخلاف بينهم ، ولعمتهم روح التسامح والاحترام والانصاف ، ولبان لهم زيف كل دعوات التمييز العنصري ، والتفوق العرقي ، ولتهافتت أسس كل اشكال العصبيات •

٧ ـ المجوس

الف الجاحظ رسالة في فضل الفرس لم تصل الينا وهو يذكر ، في كتبه ورسائله ، بعض ما كان لهم من مناقب قبل الاسلام ، وأهمها نظام حكمهم وسياستهم وأدبهم ، وينقد مايراه يستوجب النقد من دعاواهم ، وما كان لهم من نقائص وسلبيات • ونظرة الجاحظ الى الفرس ، باعتبارهم أمّة ذات تاريخ ، غير نظرته الى الديانات التي ظهرت في فارس ، ومازال لها بقية من أتباع وأشياع في عصره • فهو ينظر الى الفرس ، كما ينظر الى غيرهم من الأمم ، بعين العالم

الموضوعي . ترى موضع الحمد فتسجله ، وموضع العيب فتذكره ، دون تحيف ولا تعصب . ولكنه يقف من ديانات فارس القديمة ، وما اشتق منها من نحل وفرق ، نظرة الناقد المتشدد ، والحسيب المترصد . لان الدعوة الى بعث هذه الديانات ، واخراج كتبها من ظلمات مخابئها ونشرها بين الناس . تخفي تحتها ارادة هدم الدّولة العربية بهدم الاسلام الذي هو باعثها وأساسها . ولان هذه الديانات تخالف نهج العقل السليم وقواعد المنطق المعتمدة ، والجاحظ لايقبل العقيدة غير المتماسكة تماسكا ذاتيا منطقيا ، ويرفض أي نظام فكري اذا كان واهي المقدمات ، متناقض الأجزاء ؛ سخيف النتائج ، مهما كان ظاهر الابهة ، فخم البناء . ثم انّ الشعوبية وثيقة الصلة بهذه الديانات ، وقد علمنا موقف الجاحظ من الشعوبية . وكان الجاحظ يؤلف كتبه في فترة انبعاث الحركات الانفصالية الايرانية ، وقيام الحركة الخرمية التي دامت عشرين عاما ، وراح ضحيتها عشرات

الاف القتلى من العرب والمسلمين . ويرد ذكر هذه الديانات عند الجاحظ باسماء متعددة منها : الزرادشتية ، والمجوسية ، والمانوية ، والمثانية ، والثنوية ، الاثنينية ، وأصحاب الاثنين ، الزندقة . ويورد الجاحظ عقائد المجوسية وغيرها من ديانات فارس ، كزعمهم انّ الناس من ولد مهنة ومهنينة ، وزعمهم ان الفأرة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان ، وقولهم في سبب حرمان المطايا من السم ، وقولهم في رفض الذبائح والزهد في أكل اللحم ، ودعوة زرادشت الناس الى نكاح الامهات والتوضؤ بالبول ، وما الى ذلك من حماقات أهل الاثنين كما يقول الجاحظ(٤٠) . ولا أرى فائدة في ذكر شيء من هذه المزاعم ولا في تعليق الجاحظ عليها . واكتفي بذكر وصف الجاحظ لكتبهم ، وتعليله سبب انتشار المجوسية في بلاد فارس .

يذهب الجاحظ الى أنّ حرص الزنادقة على

المغالاة بالورق النقيّ الأبيض ، وعلى تخير الحبر الأسود المشرق البراق ، وعلى استجادة الخط ، ليس دليلا على تعظيم العلى والبيان والرغبة في التبين ، وانما جعل الزنادقة ذلك من باب الديانة . ولما كانت دياتهم ظاهرة الاختلاف ، كثيرة الفساد ، احتاجت الى الكثير من الترقيع والتموية والبهرجة ، كما يّموه الدينار البَهْرج والدّرهم الزائف . انّ الكتب المعتبرة ، الجديرة بالعناية والحرمة ، انما هي الكتب التي تنفع الناس في حياتهم الدنيا ، وتبصرهم بدينهم ، وتسمو بافكارهم ، وترقق أذواقهم ، ككتب الفلسفة والسنن والاداب ، والكتب التي تعرف الناس أبواب المكاسب والصناعات . والحال أن كل ما في كتب الزنادقة هذر ، وعي ، وخرافة ، وسخرية ، وتكذب ، وحماقة . ويجمل الجاحظ رأيه في كتب الزنادقة بقوله : « والذي يدل على ما قلنا ، انه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولاصنعة ادب ، ولاحكمة غريبة ، ولافلسفة ،

ولا مسألة كلاميّة ، ولا تعريف صناعة ، و لااستخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة . وجلّ ما فيها ذكر النّور ، وتناكح الشّياطين ، وتسافد العفاريت ، وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود الصبح ، والاخبار عن شقلون ، وعن الهامة والهمامة ، وكله هذر وعي وخرافة ، وسُخْرِيَة وتكذب ، لاترى فيه موعظة حسنة ولا حديثا مونقا ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ، ولاترتيب خاصة » . (الحيوان : : ٥٧)

واذا كانت ديانة المجوس ، وما تفرع عنها من ملل، كلها هذر وحماقة ، فكيف نجح زرادشت في دعوته ، ولماذا اعتنق عقائد المجوسية من اعتنقها من الفرس على مافيها من مخالفة ظاهرة للعقل، وبعد واضح عن التفكير السليم ؟ واجه الجاحظ هذا السؤال فعرض آراء ناس لم يرتضها ، فنقدها ، ثم عرض رأيه هو.ورأي الجاحظ في هذه المسألة يستحق أن نقف عنده وقفة مستأنية

لانه يتعدى مسألة المجوسية الى بحث سبب انتشار كل نحلة باطلة ، وعقيدة فاسدة ، وفكرة خاطئة ، عند أكثر من أمة ، وفي أكثر من زمان وجيل . وقد نوافق الجاحظ وقد نخالفه في رأيه هذا جملة ، أو في أجزاء منه . ولكننا لانستطيع الا أن نحترمه لما حاول من جواب هذه المسألة الغامضة .

زعم ناس أن الأمر قد تمّ لزرادشت لأنه بدأ بالملك فدعاه الى عقيدته بأسلوب وافق طباعه وشهوته وخلقه ، فاستجاب له الملك ، وحوّل رعيته على الايمان بها . ويعترض الجاحظ على هذا الجواب ويراه غير سديد . لانه لا يجوز ان يكون الملك حمل العامة على ذلك الا بالاستعانة باجناده ، ولايستجيب الأجناد للملك في فرض دين على العامة الا اذا كانوا هم قد آمنوا به وقبلوه أولا . ولايستطيع الملك بأجناده ، وبعشرة أضعاف أجناده أن يقوى على عامة الشعب فيحملها على قبول عقيدة ودين الا اذا كان فريق منهم قد آمنوا

بهذا الدين وقبلوه ، فكانوا أعوانا للجند على سائر الرعية . وهذا الجواب أيضا لايحسم القضية ، ويبقى السؤال قائما : لماذا انتشرت المجوسية بين جماعة كبيرة من الناس وهي عقيدة ظاهرة الفساد ؟ ويقدم الجاحظ جوابا آخر فيقول : ان الأمر تمّ لزرادشت لانه صادف زمانا غاية في الفساد ، وامة غاية في البعد من الحرية والغيرة والألفة والنّظافة . ولم ينتشر هذا المذهب الا في فارس والجبال وخراسان وهذه كلها فارسية ، ولم يتحوّل ذو دين قط عن دينه الى المجوسية .

وجواب الجاحظ هذا الأخير ، ان لم يكن وافيا كل الوفاء بحل المسألة بجميع أبعادها ، فهو على الأقل يوضح هذه الأبعاد ، ويشير الى جذورها التاريخية وملابساتها الاجتماعية . وكان بامكان الجاحظ أن يستريح من عناء البحث عن أسباب أعمق وأعمّ . على أن نزعته العلمية ماكانت لتدعه يستريح الى الحلول الهيّنة السهلة للمشكلات الاجتماعية

والفكرية المعقدة . ونظرته الانسانية الواسعة البعيدة عن التعصب ما كانت لتقره على التوقف عند ضعف آمة ، وحساب نقائصها وكأنها خاصة بها ، ملازمة لها ، وشيء في أصل طبيعتها . اذن يعود الجاحظ الى المسألة، ويغوص في أعماقها بحثا عن عللها وأسبابها ، بعقلية عالم النّفس والاجتماع وفيلسوف التاريخ .

يصرح الجاحظ ، باديء ذي بدء ، بأنه حين ذكر اعتناق كسرى أبرويز وخاصته للمجوسية ، وحين استنقص عقولهم جميعا لهذا السبب ، لم يفعل ذلك بدافع العداء للفرس ، ولم يذهب الى العصبية عليهم . وانما فعل ذلك تقديرا للواقع ، وبيانا للحقيقة . وان ما ذكره انما ينطبق على الجيل الاول الذي اعتنق المجوسية الباطلة . وأما الأجيال التالية ، فقد اعتنقتها ، على الرغم من رجحان عقولها في مسائل الحياة الأخرى ، بدافع المنشأ والتقليد . ويذكر الجاحظ أقواما اعتنقوا عقائد باطلة على الرغم من رجحان عقولهم ، وتقدمهم

في العمران ، بسبب التقليد والف دين الآباء وهذا قول الجاحظ بنصه : « فان تعجبت من استسقاطي لعقل كسرى أبرويز وآبائه ، واحبابه وقرابينه وكتابه وأطبائه وحكمائه وأساورته ، فاني أقول في ذلك قولا تعرف به أني لست الى العصبية ذهبت . اعلم أني لم أعْنِ بذلك القول الذين ولدوا بعد على هذه المقالة ، ونشئوا على هذه الدّيانة ، وغذوا بهذه النّحلة ؛ وربوا جميعا على هذه الملّة . فقد علمنا جميعا أنّ عقول اليونانية فوق الديانة بالدهرية والاستبصار في عبادة البروج والكواكب . وعقول الهند فوق الديانة بطاعة البُد وعبادة البِدَدَة . وعقول العرب فوق الدّيانة بعبادة الأصنام والخشب المنجور ، والحجر المنصوب ، والأحجار المنحوتة . فداء المنشأ والتقليد داء يحسن علاجه جالينوس ولاغيره من الأطباء . وتعظيم الكبراء ، وتقليد الأسلاف ، والف دين الآباء ؛ والأنس بما لايعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد ،

والكلام في هذا يطول • فان آثرت ان تتعجب ، حتى دعاك التعجب الى ذكر أبرويز ، فاذكر سادات قريش ، فانهم فوق كسرى وآل كسرى »[٤٣] •

٨ ـ فخر السودان على البيضان

كان الجاحظ عالما واسع العلم ، متعدد جوانب المعرفة وكان يحبُّ أن يظهر في مؤلفاته موسوعية علمه ، وشمولية ثقافة ، وقدرته على الكتابة في كل موضوع يهم قراء عصره ، أو يمتعهم • وكان يؤلف في الموضوع وضدهّ حتى اتهم بانه يعتقد أراء متناقضة ويميل مع هوى كل فريق ونحلة • ويرد الجاحظ بانه يروي أقوال أهل الملل والنحل والأمم والقبائل ولايعني ذلك انه يرى رأيها ، ويميل ميلها ، وينحو نحو أهوائها ، وانما يفعل ذلك وصفا للواقع القائم ، ورواية آراء الناس وأخبارهم كما هي عندهم، شأن المحدث الصادق، والناقل الأمين •

وكثيرا ما كان الجاحظ يعرض حجج الخصـــوم بأحسن مما يعرضونها هم ، مما أثار عليه نقد المتشددين فاتهموه بنشر عقائد وآراء باطلة تسيء الى الاســلام والعرب • وممن انتقده تلميذه الامام الكبير ابن قتيبة ، الذي يقول عنه في كتابه «تأويل الحديث ص ٥٩ــ٦٠ من طبعة محمد زهري النجار « ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين، والمعاير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يَعْظُم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ويحتج لفضل الســودان على البيضان •••• ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار الى الردّ عليهم ، تجوّز في الحجة ، كأنه انما أراد تنبيههم على ما لايعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين » • وكأن الجاحظ كان شاعرا بما سيوجه الى منهجه وأسلوبه في رواية حجج

أهل الملل ؛ فأوضح رأيه بما يدفع عنه هذه التهمة ، وأنه انما يعرض آراء الناس من أهل الملل الأخرى بأحسن مما يعرضونها هم ، ليقدمها بأقوى أدلتها ، ومن مختلف جوانبها ، ليرد عليها وهي في كامل قوتها ، فيسقطها ويبطلها . ولايترك لأصحابها بابا يدخلون منه لاغواء عامة المسلمين والتغرير بضعفتهم وجهالهم • ونص كلام الجاحظ في رسالة الرد على النصارى : « قد قلنا في جواباتهم ، وقومنا مسائلهم ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليل تاما والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبر هذا الجواب : أنّا لم نغتنم عجزهم ولم ننتهز غرتهم • وأن الادلال بالحجة ، والثقة بالفلج والنصرة ، هو الذي دعانا الى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم ، وألا نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه او يشير اليه مشير ، وألا يوردوا فيما يستقبلون على ضعفائنا ، ومن قصر نظره منا ، شيئا الا والجواب قد سلف فيه ، وألسنتهم قد ذلّت به »[٣٤] • وكفى بهذا جواب عالم فيلسوف •

وأضيف الى ماقاله الجاحظ عن نفسه شيئا لعله يزيد الامر وضوحا . كان الجاحظ يستمتع بالرأي ، ولو كان مخالفا لرأيه ، اذا كان مشرف الديباجة ، لطيف العرض ، متماسك الأجزاء ، صحيح القياس ، كما يستمتع أي لاعب هاوٍ ببراعته هو في لعبه ، وببراعة منافسه في حركاته ومفاجآت نقلاته ، وتصرفه الذكي وفق قواعد اللعبة . وكان الجاحظ يؤمن بالعرب والاسلام ايمان واثق ؛ فلا يخشى عليهما من منقبة وفضيلة تنشر لقوم أو لملة ، ولا من رأي جاهل ، وقول موتور ، وبيت شاعر هجّاء . وكان الجاحظ ، الى كل ماتقدم ؛ رحب الصدر ، واسع الافق . ومن يملك معرفة الجاحظ الموسوعية ، ومن يعلم من أمر الناس ما كان يعلم ، كيف لا يكون رحب الآفاق ، عظيم التسامح ؟ وكذلك كان الجاحظ يروي حكمة الحكماء وآراء الناس المتضاربة ، وحماقات الحمقى ، ويكشف عن عظمة الانسان وضعفه ، يجد ويهزل ، ويؤيد وينقد ، ويحنو

ويسخر ، ويضحك ويكتئب ، كما جد وهزل وضحك وكتب لو قيانوس السيساطي وأرازموس ورابليه وموتيني وفولتير ، نعم وأناتول فرانس سليل هؤلاء الكبار جميعا .

كتاب « فخر السودان على البيضان » رسالة صغيرة روى فيها الجاحظ ماحضره من مفاخر السودان ومناقبهم . ومعظم ما في هذه الرسالة مما يقوله السودان أنفسهم ويدعونه ، ومن هنا أهميتها ، فهي تمثل رأي السودان بانفسهم ، وموقفهم من العرب والامم الأخرى ، كما تمثل رأي الجاحظ الى حد كبير .

وساعرض بعض النقاط المهمة ، وابدأ بتحديد معنى السودان كما ورد في الرسالة . كان السودان يقسمون البشر ، على اساس لون البشرة فقط ، الى الكاثرة ؛ والبيضان قلة صغيرة : « وقالوا : والسوادن أكثر من البيضان ، لأن أكثر مايعد البيضان فارس

والجبال وخراسان ، والروم والصقالبة وفرنجة والابر ، وشيئا بعد ذلك قليلا غير كثير . والسودان يعدون الزنج والحبشة ، وفزان وبربر ، والقبط والنوبة ، وزغاوة ومرو ، والسند والهند ، والقمار والدّيبلا ، والصين وما صين . والبحر اكثر من البر ، وجزائر البحر ما بين الصين والزنج مملوءة سودانا ، كسر نديب : وكله ، وأمل وزابج وجزائرها ، الى الهند الى الصين الى كابل وتلك السواحل»(٤٤) . فأين موقع العرب بين هذه الأقوام ؟ يرى السودان أن العرب منهم ، ويحتجون بالحديث النبوي : « بعثت الى الاحمر والاسود » ويشرحونها بما يؤيد رأيهم . « قالوا : ومنّا العرب لامن البيضان ، لقرب ألوانهم من الواننا . والهند اسمر الوانا من العرب ، وهم من السودان . ولان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت الى الاحمر والاسود » وقد علم الناس أن العرب ليست بحمر كما ذكرنا قبل هذا »(٤٥) .

ويؤيدون رأيهم بأن ولد عبدالمطلب . وآل أبي طالب ، كانوا دُلْمًا ، أي شديدي السواد . « قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دلما ضخما . وكان عبد الله بن عبّاس أدلم ضخما . وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم سود وأدم ودلم . »(٤٦) ويتبين من هذا أن السودان كانوا يفخرون بالاسلام ، ويعتزون بكون العرب منهم . وعلى الرغم من ذكر السودان أقواما عديدة ينسبونهم اليهم الا أن معظم الرسالة تدور حول مناقب الحبش ، والزّنج، وقليل منها عن الهند والسند. والحبش والزنج يعدون من مناقبهم لقمان الحكيم . ويذكرون رجالا اشتهروا بالحكمة والشعر والفقه والجهاد والسابقة في الاسلام ومنهم :بلال الحبشي ، ومهجع وهو اول قتيل في سبيل الله يوم بدر ، والمقداد وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله ، وسعيد بن جبير ، وجليبب الصحابي الشهيد ، ومكحول الفقيه ، والحيقطان الشاعر ، وفرج الحجام . ومن أبناء الزنجيات

تزعمون لانفسكم كل هذه المفاخر والمناقب ونحن لم نر زنجيا فقد له عقل صبي او امرأة ؟ أجاب الزنج قائلين : « أهل الشرف والعقل والعلم انما ينزلون الواسطة . وبقرب دار الملك . وهؤلاء حاشية وأعلاج وأكرة . ونزال السواحل والآجام . والفيوض والجزائر، من أكار وصياد »[٥١] .

ويعلل الجاحظ سبب سواد السودان بأثر الطبيعة فيهم . والفقرة التي يوردها في هذه الرسالة أتم وأوضح من العبارات التي اقتبسناها سابقا في الموضوع ، نثبت نصها الكامل ، لاهمية هذه النظرية في مجمل فلسفة الجاحظ في الانسان . يقول الزنج : « ونحن نقول : ان الله تعالى لم يجعلنا سودا تشويها بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سودا كبني سليم بن منصور . وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود . وانهم ليتخذون المماليك للرعي والسقاء ، والمهنة والخدمة ، من

الاشبانيين ومن الروم نساءهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرة الى ألوان بني سليم . وقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظباءها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثعالبها وشاءها وحميرها ، وخيلها ، وطيرها كلها سود . والسواد والبياض انما هما من قبل خلقة البلدة . وماطبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير على أن بلاد بني سليم تجرى مجرى بلاد الترك . ومن رأى ابلهم ودوابهم وكل شيء لهم تركي رآه شيئا واحدا . وكل شيء لهم تركي المنظر . وربما رأى الغزاة دون العواصم اخلاط غنم الروم ، فلا يخفى عليهم غنم الروم من غنم الشام ، للرومية التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا الى خراسان فلا نشك انهم علوج القرى . وهذا

موجود في كل شيء • وقد نرى جراد البقل والريحان وديدانهما خضرا ، ونرى قمل رأس الشاب سودا ، ونراها اذا ابيض رأسه بيضا ، ونراهـا اذا خضبت حمرا • فليس سوادنا ، معشر الزنـج ، الاكـواد بني سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صـدر هذا الكـلام •

وما افراط سواد من اسودّ من الناس الا كافراط بياض من ابيضّ من الناس • وكذلك السمرة المتولدة من بينهما . وكذلـك الزي والهيئات ، وكذلـك الصناعات ، وكذلك المطاعم والشهوات »(٥٢) •

نقد الامام ابن قتيبة للجاحظ لتاليفه كتاب فخر السودان لايقوم ، في رأيي ، على أساس واضح من الحق • فالجاحظ انما أكـد لهذه الاجيال التي تكاد لا تحصى من أبناء البشر السود كرامتهم الانسانيـة بنشر شيء من مناقبهم وفضائلهم • وكل ماعدا هذا ،

في هذا الكتاب الصغير ، قليل هيّن بالقياس الى هذا الهدف الانسـاني الكريم •

٩ ـ مناقب الترك وعامة جند الخلافة

كتاب « مناقب الترك » من اهم ما الفه الجاحظ في أحوال الأمم : عرض فيه معظم آرائه في طبائع الشعوب ، وعلل اتفاقها واختلافها وتنوعها ، ووصف أخلاقها وشيمها وعاداتها وتقاليدها • ولا أعلم ، فيما قرأت لبارتولد الروسي وكب الانكليزي وشبولر الألماني وغروسيه الفرنسي ، أعمق من كتاب الجاحظ تحليلا للعلاقة بين طبائع الترك وبيئتهم الصحراوية ، ولا أبلغ منه وصفا لأحوالهم في سلمهم وحربهم وفنون قتالهم وسلاحهم ، فالكتاب ، من هذه الناحية ، مصدر

أساس لدراسة أصول الترك ومعرفة أحوالهم في بداوتهم وأوطانهم الصحراوية • ولعل صفات الترك وطبائعهم هذه ، التي يصمها الجاحظ هو ومن يروي عنهم ، هي التي أغرت المعتصم وخلفاءه باتخاذهم جندا وحرسا لهم •

ويتألف الكتاب من أقسام عديدة تجمعها وحدة الموضوع : من حديث جرى في عهد المأمون ، ورسالة في الترك كتبها الجاحظ للمعتصم ولم تصل اليه ، الى حوار جرى بين فريق من جند الخلافة ، الى خلاصة رأي الجاحظ في الموضوع • وقد جمع الجاحظ كل هذا في هذا الكتاب وقدمه للفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل ، وكان للترك ، يومئذ ، المركز المتقدم بين جند الخلافة •

بحث الجاحظ أثر البيئة الصحراوية في طبائع الترك ، ولكنه لم يبحث في أثر تغير البيئة الطبيعية والاجتماعية فيهم حين استقروا في بغداد وسامراء ،

اولم يصلنا شيء مماكتبه فيه • وفي أواخر حياة الجاحظ قتل الجند الترك الخليفة المتوكل وقتلوا معه في مجلسه وزيره الفتح بن خاقان ، وبدأوا بذلك ، مسلسل الاعتداء على الخلفاء ، والصراع فيما بينهم على السلطة والحكم ، مما كان أحد أهم اسباب ضعف الدولة وسقوطها • وأغلب ظني أنّ الجاحظ قضى السنوات القليلة الباقية له من عمره حزينا ، كئيبا ، على ما صنع الجند الترك ، الذين أبدع في وصف طبائعهم وأشاد بمناقبهم ، بهذه الخلافة العربية العباسية التي آمن بها ، وأحبها ،وكرس عبقريته لحمايتها ، والدفاع عنها ، والمحافظة على وحدتها •

وأحب أن أسير مع الجاحظ في حديثه عن الترك وغيرهم من الاقوام • تكلّم رجل في جماعة تضم أخلاطا من جند الخلافة ، فزعم أن جند الخلافة على خمسة أقسام : خراساني ، وتركي ، ومولى ، وعربي ، وبَنَوِيّ • فاعترض عليه أحد الحاضرين ، وأنكر

التباعد في النسب • وأكد أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة ، والطاعة ، والمحبة للخلفاء والأئمة •

ويروي الجاحظ ، في حديث طويل ، ما قاله كل فريق في وصف ولائهم للدولة ، وطاعتهم للخلفاء • وما يفاخرون به من مناقب وشيم ، وما لديهم من فنون في الحرب ، وما عندهم من الاداب والصناعات •

وأما الجاحظ فيريد أن يبحث في مناقب هؤلاء الاقوام ولكن بغير هذا المنهج والأسلوب • فهو يريد أن يبتعد عن مذاهب الجدل والمراء والهوى ، وعن سبيل اهل الخصومات وأصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم • فهدفه من تاليف هذا الكتاب انما هو أن يؤلف بين قلوبهم ان كانت مختلفة ، ويزيد الألفة ان كانت مؤتلفة ، حتى تجتمع كلمتهم ، وتسلم صدورهم • وفي رأيه أنّ اصناف الجند ، وان اختلفوا في الجنس ، فهم يرجعون الى معنى واحد ، وعمل

واحد ، ألا وهو طاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان • وأنهم جميعا ينتمون الى العرب بالولاء • وليس في هذا ما يخالف ماتواضع عليه الناس ، اذ يعدون الخال والدا ، وابن الأخت من القوم ، والمرأة من جهة الرضاع أمّا ، والمربي أبا ، والحليف من صميم القوم• واذا عرفت هذه الأقوام قرابة الولاء للعرب هذه وأقرت بها حلّ الوفاق بينهم محلّ الخلاف ، وتسامحت النفوس ، وماتت الضغائن والأحقاد •

ويروي الجاحظ نص حديث حميد بن عبد الحميد ، وهو أحد رجال الدولة العباسية وقوادها المعروفين ، في المفاضلة بين قتال الخوارج والترك • وحديث حميد من أروع ما كتب في وصف فنون الترك في القتال ، وأسلحتهم ، وخيولهم ، وسائر أحوالهم • ويعقبه بحديث القائد العربي ثمامة بن أشرس ، وهو مثل حميد ، قد خبر قتال الترك ، واطلع على أحوالهم في بلادهم بنفسه •

ويؤيد الجاحظ ما قاله وحميد وثمامة في مناقب الترك ، ويمدح أخلاقهم ، ويشير الى ما يستوحش منها ، فيقول : « والذي يوحش منهم ، الحنين الى الاوطان ، وحب التقلب في البلدان والصبابة بالغارات، والشغف بالنهب ، وشدة الالف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج، والا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ، ويصير حدهم على الايام كليلا (٥٣)» •

يقول الجاحظ : « محبة الوطن شيء شامل لجميع الناس ،وغالب على جميع الجيرة ولكن ذلك في الترك أغلب »(٥٤) • ويعلل ذلك بتأثير بيئتهم على تركيبهم وطبائعهم • « لان في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة اخوانهم ، ما ليس مع أحد سواهم »(٥٥) •

وأمر آخر مما يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم

واحد ، الا وهو طاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان • وانهم جميعا ينتمون الى العرب بالولاء • وليس في هذا ما يخالف ماتواضع عليه الناس ، اذ يعدون الخال والدا ، وابن الأخت من القوم ، والمرأة من جهة الرضاع أمّا ، والمربي أبا ، والحليف من صميم القوم• واذا عرفت هذه الأقوام قرابة الولاء للعرب هذه وأقرت بها حلّ الوفاق بينهم محلّ الخلاف ، وتسامحت النفوس ، وماتت الضغائن والأحقاد •

ويروي الجاحظ نص حديث حميد بن عبد الحميد ، وهو أحد رجال الدولة العباسية وقوادها المعروفين ، في المفاضلة بين قتال الخوارج والترك • وحديث حميد من أروع ما كتب في وصف فنون الترك في القتال ، وأسلحتهم ، وخيولهم ، وسائر أحوالهم • ويعقبه بحديث القائد العربي ثمامة بن أشرس ، وهو مثل حميد ، قد خبر قتال الترك ، واطلع على أحوالهم في بلادهم بنفسه •

ويؤيد الجاحظ ما قاله وحميد وثمامة في مناقب الترك ، ويمدح أخلاقهم ، ويشير الى ما يستوحش منها ، فيقول : « والذي يوحش منهم ، الحنين الى الاوطان ، وحب التقلب في البلدان والصبابة بالغارات، والشغف بالنهب ، وشدة الالف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج، والا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ، ويصير حدهم على الايام كليلا [٥٣]» •

يقول الجاحظ : « محبة الوطن شيء شامل لجميع الناس ،وغالب على جميع الجيرة ولكن ذلك في الترك أغلب »[٥٤] • ويعلل ذلك بتأثير بيئتهم على تركيبهم وطبائعهم • « لان في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة اخوانهم ، ما ليس مع أحد سواهم »[٥٥] •

وأمر آخر مما يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم

انهم قوم لايطيقون قلة التصرف والتحرك ، وأصل بيتهم انما وضع على الحركة .

ويعلل الجاحظ سبب تفوّق الترك في الحرب ، وبراعتهم في فنون القتال ، ويقدم لذلك بمقدمة فلسفية اجتماعية ، تبحث في سبب تفوّق كلّ أمة متحضرة فيما اختصت به . وأساس هذا التفوّق هو التركيز على امر من الامور والتخصص فيه ، والمواظبة عليه .

« ثم اعلم ، بعد هذا كله ، أنّ كل أمة وقرن ، وكل جيل وبني أب ، وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البيان ، أو فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ، فانكم لاتجدهم في الغاية وفي أقصى النهابة ، الا أن يكون الله قد سخّرهم لذلك المعنى بالأسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل الأمور ، وتصلح لتلك المعاني ، لأن من كان منقسم الهوى ، مشترك الرأي ، ومتشعب النفس ، غير موفّر على ذلك الشيء ولا مهيأله ، لم

يحذق من تلك الأشياء شيئا بأسره ، ولم يبلغ فيه غايته . كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحِكَم والآداب ، والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه ، وآل ساسان في الملك ، والاتراك في الحروب »[٥٦] . ويصف الجاحظ تفوّق اليونانيين بالعلوم النظرية والطب والحساب والهندسة ، واختراع الآلات الدقيقة ، بسبب تفرغ علمائهم لهذه الامور ، وعدم اشتغالهم بالصناعة والحرث والزرع . وبسبب التفرغ والتخصص برع سكان الصين بالصنائع والفنون . ويقول الجاحظ في سبب تفوّق العرب فيما اختصوا به : « وكذلك العرب ، لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا اصحاب فلاحة فيكونوا مَهَنَة ، ولاأصحاب زرع ، لخوفهم من صَغَار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ، و لاأصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم، ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورؤوس

المكاييل، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنىَ الذي يورث البلدة ، والثروة التي تحدث الغِرّة . ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ويصغّر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق والا اللثق ، ولا البخار ولا الغلظ ولا العَفَن ، ولا التَخَم . أذهانٌ حداد ، ونفوسٌ منكرة . فحين حملوا حدهم ، ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الاثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرّف الانواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المثالب والمناقب . بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كلّ أمنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع من جميع الامم وافخر ، ولايامهم أحفظ وأذكر »(٥٧) .

ويعلل الجاحظ سبب براعة الترك بالحرب ، وتكامل نجدتهم وفروسيتهم ، بمثل ما علل به براعة العرب بما برعوا فيه ، فهم في حالتهم البدوية يشبهون العرب الأعراب من حيث عدم اشتغالهم بالحرف والمهن والصّناعات ، وانصراف هممهم الى الغارة والغزو والصيد وركوب الخيل . لكل هذا برعوا في القتال ، وتفنّنوا في أساليب الحرب ، لأنهم اختصوا بها ، وعكفوا على ممارستها ، بحكم البيئة الطبيعية التي وجدوا فيها والحياة الاقتصادية والاجتماعية التي عايشوها . والدليل على شدة تخصص الترك بالحرب ان صناعة السّيف الجاهز تمر على أيد كثيرة ، وعلى طبقات من الصّنّاع ، كل واحد منهم لا يعمل عمل الآخر ، « والتركي يصنع السّيف لنفسه من ابتدائه الى غايته »(٥٨) لايستعين بأحد .

ويحتاط الجاحظ ، شأن العلماء ، فيبين حدود ما ينطبق عليه وصفه من ابناء المجتمعات والامم التي

وصفها ، فيقول : « وليس أنه ليس في الارض تركي الا وهو كما وصفنا ، كما انه ليس كل يوناني حكيما ، ولا كلّ صيني غاية في الحذق ، ولا كلّ أعرابي شاعرا فائقا . ولكن هذه الامور في هؤلاء اعم وأتم ، وهي فيهم أظهر وأكثر »[٥٩] .

وكان الترك ، كالكثير من أبناء العجم ، يحاولون الانتساب للعرب بشكل من الاشكال . وقد اعتمدوا على رواية غامضة وردت في سفر التكوين فأثبتوا أنّ ابراهيم الخليل أبوهم ، وابنه اسماعيل عمّهم ، فهم بذلك أبناء عم العرب[٦٠] . ولا يهمنا ، اليوم ، أن تكون هذه المزاعم والدعاوي صحيحة أو غير صحيحة ، ذات أساس تاريخي ، أو مستمدة من أساطير وأوهام ، وانما يهمنا أن نعرف سبب حرص الاقوام المختلفة من العجم على الانتساب للعرب ، لكي نفهم بعض دوافع حركة المجتمع في عصر الجاحظ . والسبب ، في رأيي ، ظاهر ، فالعرب هم مادة الاسلام وقوامه ، رسوله منهم،

وأبناء عمه خلفاؤهم ، ولغتهم هي لغة الوحي المبين ، ولسان الفكر والدولة والحضارة ، فالانتساب للعرب شرف ، ووسيلة قربى من السلطان .

ذكر الجاحظ ، في كتاب مناقب الترك ، مناقب معظم أقوام الدولة العباسية ، وبين فضائلهم التي اختصوا بها . وذكر من الوقائع والحقائق ما يجمع ولا يفرّق ، ولم يمدح قوما باظهار نقائص الآخرين . وخلاصة ما قاله : ان الاقوام جميعا كرام ، قد تفرد كلّ قوم بناحية ، وتميزوا بفضيلة ، واختصوا بفن أو صناعة . وهم ، على فضل جميعهم ، يتفاضلون فيما بينهم ، أفرادا ، وجماعات ، وأمما ، فالتفاضل شيء قائم في حياة البشر ، وأمر مشهود في الطبيعة . « وقد تختلف الجواهر وكلها كريم ، وتتفاضل العِتاق وكلّها جواد »[٦١] ، و « لكلٍّ نصيب من التنقص ، ومقدار من الذنوب . وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء . فاما الاشتمال على جميع المحاسن ،

والسلامة من جميع المساوىء دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف »(٦٣) .

١٠ ــ الحجام

فلسفة الجاحظ في الانسان متكاملة ، متناسقة ، اقامها على اساس من منهج علمي منطقي ، يدرس الظاهرة دراسة موضوعية ، ويبحث عن اسبابها في عللها الطبيعية والاجتماعية . واستطاع ، بارادته ومحبته للمعرفة والحق ، أن يتخطى حدود (المسلمات) الفكرية في عصره . ليبحث بفكر عالم وفيلسوف حر . وكان موقفه من أقوام البشر وأجناسهم ، جماعات وأفرادا ، التطبيق العملي لفلسفته الانسانية . كان عربيا : يعتز بالعرب ، ويفاخر بهم ، ويفضلهم على الناس . ولكنه يعلن أنه انما يفعل ذلك لان فضائل العرب ومناقبهم وآدابهم

وتاريخهم هي التي تقدمهم على من سواهم ، وأنه لم يخرج من حدّ الحمية الى حدّ العصبية . وكان يشيد بمناقب وفضائل كلّ قوم لديهم مناقب وفضائل . وكان ، لمعرفته بضعف الانسان ، يعلل سقطاته بعللها الطبيعة ليخفف من الحكم عليها . وكان معياره الذي يقيس به قيمة الأفراد والجماعات هو مقدار ما يقدمونه من العمل النافع للناس ، ومقدار مايحسنون من هذا العمل . يقول الجاحظ في البيان والتبيين ، ج١ص ٨٣ . « قال علي كرّم الله وجهه : « قيمة كل انسان ما يحسن » ويعلق على هذه الكلمة الصغيرة التي جمعت كل فلسفة في قيمة الانسان فيقول : « فلو لم نقف من هذا الكتاب الا على هذه الكلمة لوجدنا ها شافية كافية ، ومجزئة مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية، وغير مقصرة عن الغاية » .

واختم مقالتي ، كما ختم الجاحظ الجزء السابع من كتابه العظيم الحيوان ، بسيرة فرج الحجّام . قال

الجاحظ : « وكان فرج الحجام مملوك جعفر بن سليمان ، اذا حجمه أو اخذ من شعره ، لم يتكلم ولم يتحرك ، ولم يأخذ في شيء من الفضول ... فاعتقه ، وزوجه ، ووهبه مالا . وكان قاطع الشهادة . ولم يكن أحد من مواليه يطمع أن يشهده الا على شيء لا يختلف فيه الفقهاء . وهو الذي ذكره أبو فرعون فقال :

خلوا الطريق زوجتي أمامي
انا (حميم) فرج الحجّام

وكان أهل المربد يقولون : « لانرى الانصاف الا في حانوت فرج الحجام ، لأنه كان لا يلتفت الى من أعطاه الكثير دون من أعطاه القليل ، ويقدم الاول ثم الثاني ثم الثالث أبداً حتى يأتي على آخرهم ، على ذلك يأتيه من يأتيه ، فكان المؤخر لا يغضب ولا يشكو . » .

ويذكره الجاحظ في كتاب « فخر السودان »

فيقول : « ومنهم فرج الحجام وكان من أهل العدالة ، والمقدمين في الشهادة .

اعتقه جعفر بن سليمان ، وذلك انه خدمه دهرا يصلح شاربه ولحيته ويهيئة ، فلم يره أخطأ في قول ولا عمل ... قال : وبلغ من عدالته ، وتبله في نفسه ، وتوقّيه وروعه ، أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل المربد ، كانوا لا يطمعون أن يشهدوه الا على امر صحيح لا اختلاف فيه » . (رسائل الجاحظ ١ : ١٨٢) .

هذا رجل غريب من السود ، يشتغل في مدينة البصرة العربية حجّاما مزينا ، يعتقه الأمير لأدبه وأخلاقه ونبل نفسه ، ويمدحه شاعر ويعتزي اليه ، ويجله أهل المربد لعدالته وانصافه واحسانه في ومهنته ، ويخلد سيرته الجاحظ وينشر حمده في الآفاق . وكفى بهذا وحده دليلا على انسانية الحضارة العربية ، التي تحترم الانسان لأنه انسان ، وعلى رفضها كل تمييز بين

الناس على أساس العرق والعنصر واللون ! وكفى بهذا وحده دليلا على انسانية فلسفة الجاحظ ، ورفضه للعنصرية ، ولكل تعصّب وعصبية .

فيقول : « ومنهم فرج الحجام وكان من أهل العدالة ، والمقدمين في الشهادة .

اعتقه جعفر بن سليمان ، وذلك انه خدمه دهرا يصلح شاربه ولحيته وبهيئة ، فلم يره أخطأ في قول ولا عمل ... قال : وبلغ من عدالته ، وتبله في نفسه ، وتوقّيه وروعه ، أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل المربد ، كانوا لا يطمعون أن يشهدوه الا على امر صحيح لا اختلاف فيه » . (رسائل الجاحظ ١ : ١٨٢) .

هذا رجل غريب من السود ، يشتغل في مدينة البصرة العربية حجّاما مزينا ، يعتقه الأمير لأدبه وأخلاقه ونبل نفسه ، ويمدحه شاعر ويعتزي اليه ، ويجله أهل المربد لعدالته وانصافه واحسانه في ومهنته ، ويخلد سيرته الجاحظ وينشر حمده في الآفاق . وكفى بهذا وحده دليلا على انسانية الحضارة العربية ، التي تحترم الانسان لأنه انسان ، وعلى رفضها كل تمييز بين

الناس على أساس العرق والعنصر واللون ! وكفى بهذا وحده دليلا على انسانية فلسفة الجاحظ ، ورفضه للعنصرية ، ولكل تعصّب وعصبية .

الهوامش

(١) كتاب التربيع والتدوير ص ٧٢
(٢) شرحه ص ١٤ .
(٣) كتاب الحيوان : ١ : ٢٠٧
(٤) الحيوان ٦ : ١٣ — ١٤
(٥) الحيوان ٦ : ٣٥ — ٣٧
(٦) الحيوان ٤ : ٢٠٧
(٧) الحيوان ٣ : ٢٢٨ — ٢٢٩
(٨) الحيوان ٣ : ٣٧٣ — ٣٧٤
(٩) الحيوان ١ : ٢١٢
(١٠) الحيوان ١ : ٢١٢
(١١) الحيوان ١ : ٢٦ — ٢٧
(١٢) الحيوان ٥ : ٥٤٢ — ٥٤٣
(١٣) الحيوان ٢ : ١٤٧ — ١٤٨
(١٤) الحيوان ١ : ٢٠٤ — ٢٠٥

(١٥) الحيوان ١ : ١١١
(١٦) الحيوان ١ : ١٢٤
(١٧) الحيوان ١ : ٢٠٣
(١٨) الحيوان ٤ : ٧٠ — ٧٣
(١٩) الحيوان ٤ : ١٤٠ — ١٤٣ ، ٥ : ٣٦ ، ٣٧٠ ، ٦ : ٢٤٨
(٢٠) الحيوان ١ : ٢٨٧
(٢١) الحيوان ٢ : ١٠٤ — ١٠٥
رسائل الجاحظ ١ : ٥١ — ٥٢
(٢٢) كتاب البلدان ص ٤٨١
(٢٣) رسائل الجاحظ ١ : ٥١
(٢٤) البيان والتبيين ٤ : ٢٣
(٢٥) رسائل الجاحظ ١ : ٢١٥
(٢٦) الحيوان ٦ : ٢٤٨ — ٢٥٥
(٢٧) اليحوان ١ : ١١٦ — ١١٧
(٢٨) البيان والتبيين ٣ : ١٩٣ — ١٩٤
(٢٩) الحيوان ٢ : ١٠١ — ١٠٣
(٣٠) الحيوان ١ : ١٥٧
(٢٢) كتاب البلدان ص ٤٧١ .
(٣٢) الحيوان ١ : ٧٤ — ٧٥
(٣٣) البيان والتبيين : ٣ : ٢٩١
(٣٤) شرحه : ٣ : ٢٩٢
(٣٥) شرحه : ٣ : ١٢ — ١٤

(٣٦) شـرحه : ٢ : ٢٧ ـ ٢٩
(٣٧) شـرحه : ٢ : ٢٩
(٣٨) شـرحه : ٢ : ٢٩ـ ٣٠
(٣٩) شـرحه ٢: ٩٠
(٤٠) الحيوان ١ : ١٩٠ ، ٤ : ٤٢٧ ـ ٤٣٦ ، ٥ : ٢١٩ ـ ٢٢٥
(٤١) شـرحه ١ : ٥٧
(٤٢) شـرحه ٥ : ٢٢٥ ـ ٢٢٨
(٤٣) ثلاث رسائل : ص ٢٧
(٤٤) رسائل الجاحظ : ١ : ٢١٥ ـ ٢١٦
(٤٥) شـرحه ١ : ٢١٦
(٤٦) شـرحه ١ : ٢٠٩
(٤٧) شـرحه ١ : ١٩٦
(٤٨) شـرحه : ٢٠٢
(٤٩) شـرحه ١ : ١٩٥
(٥٠) شـرحه ١ : ٢٢٣ ـ ٢٢٤
(٥١) شـرحه ١ : ٢١٢
(٥٢) شـرحه ١ : ٢١٩ ـ ٢٢٠
(٥٣) شـرحه ١ : ٦٢ ـ ٦٣
(٥٤) شـرحه ١ : ٦٤
(٥٥) شـرحه ٦٣
(٥٦) شـرحه ١ : ٦٧
(٥٧) شـرحه ١ : ٦٩ ـ ٧٠

(٥٨) شـرحه ١ : ٧١ ـ ٧٢
(٥٩) شـرحه ١ : ٧٣
(٦٠) شـرحه ١ : ٧٤ ـ ٧٥
(٦١) شـرحه ١ : ٨٥
(٦٢) شـرحه ١ : ٣٧

المصادر

الجاحظ : الحيوان ، سبعة اجزاء ، ط1 ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

الجاحظ : البيان والتبيين ، اربعة اجزاء ، ط1 ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

الجاحظ : رسائل الجاحظ ، جزان ، ط1 ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

الجاحظ : كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، دمشق ١٩٥٥ .

الجاحظ : ثلاث رسائل ، نشره يوشع فنكل ، المطبعة السلفية في القاهرة ، ١٣٤٤ هـ .

الجاحظ : كتاب البلدان ، نشره الدكتور صالح احمد العلي ، مستلة من مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد ، ١٩٧٠ .

المحتويات

رقـم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغـداد
(٣٤٢) لسـنة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة ـ بغـداد
١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

Little Encyclopedia

A Fortnightly Cultural Series dealing with various branches of Science, Art, and Literature

ISSUED BY THE MINISTRY OF CULTURE & INFORMATION BAGHDAD

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان